



اسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسامحين

للدكتور حسن ظاظا
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٣ - ١٣٩٣ هـ



DS
119.7
Z39
Arabic
Oriental
Coll.



اسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسامحين

للدكتور حسن ظاظا
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية

القاهرة

مؤسسة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لجمعية البحوث الإسلامية

نحمد الله ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونصلي ونسلم
على رسوله الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحابه، ومن
دعا إلى الله على بصيرة ، وجاهد في سبيل الله حتى أظهره الله ، ونسأل
الله النصره على أعداء الحق ، دعة الباطل الذين أفسدوا في الأرض ، وعتوا
عتواً كبيراً .

وبعد :

فنقدم للمقارئ بحثين جديرين بالتقدير والاهتمام ، للأستاذ الدكتور
حسن ظاظا : البحث الأول وعنوانه « إسرائيل ركيذة للاستعمار بين
المسلمين » وقد ناقشه المؤتمر السابع لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة
في سنة ١٣٩٢ هـ - سنة ١٩٧٢ م ، وقرر نشره منفصلاً حتى يسهل
للمقارئ الحصول عليه .

والأستاذ مؤلف البحث ، تعرض فيه اقضية فلسطين ، وعمل إسرائيل ،
عبر التاريخ الطويل ، على إيجاد وطن قومي لليهود ، ثم عرض لتقسيم
فلسطين ، ومن أهانوا عليه من الشرق والغرب ، وذكر فيه رغم اختصاره
حقائق تاريخية يستخلص منها المقارئ أن عرب الأرض السليبية

- فلسطين - يواجهون حملة إبادة ، دبر لها منذ قرون ، لتنفيذ على يد الاستعمار وليساندها الا استعمار الجديد ، ولكن الله غالب على أمره ، ولا بد من أن يعود الحق إلى نصابه (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

والبحث الثاني وعنوانه « القدس » هل هي مدينة الله ؟ أم مدينة داود ؟ يعرض المؤلف للقضية من أساسها ، منذ نشأتها ، وما مر عليها من أطوار مختلفة ، على امتداد التاريخ ، مدعماً ببحثه العلمي بالحجج ، ومؤيداً بالبراهين ، كاشفاً عن وجه الصهيونية المعقد ، ومغالطتها المقصودة ، رابطاً بين ما ضيهم وحاضرهم ، ومفنداً مزاعم الصهيونيين بأن القدس مدينة داود ، وينتهي إلى نتيجة علمية بان القدس مدينة الله .

والكتاب في جملته وتفصيله ، زاد جديد ، لا غنى عنه لكل عربي ، وسلاح فكري لكل مسلم .

هذا وقد جمعنا الباحثين في كتاب ، لأن موضوعهما واحد ، والغرض منهما واحد .

وفق الله الجميع لما فيه نفع الإسلام والمسلمين .

دكتور . محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

إسرائيل

ركيزة للاستعمار بين المسلمين

للاستاذ الدكتور حسن ظاظا
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ تراى إلى العالم من أقصاه إلى أقصاه نياً قيام دولة جديدة في فلسطين، هي إسرائيل، وفي هذا الوقت كانت جراح الإنسانية التي أصيبت بها في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ ما تزال مفتوحة دامية، كان كثير من الأطفال في العالم ما يزالون بعد يجهلون إذا كان آباؤهم أسرى أو أنهم قد قتلوا وتركوهم أيتاماً، وكان الدمار الذي اكتسح أوروبا والشرق الأوسط والأقصى ما يزال ماثلاً للعيان، تكاد تفوح منه رائحة الدم والبارود، وكانت هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت على عجل، لتتبلور فيها كل أحلام السلام والأمن والرخاء، تعيش حقبة وردية من حياتها، تتعلق بها الأنفاس الضعيفة المتقطعة التي بقيت في صدور البشر بعد أعوام طويلا من القتال رهيب، كانت الأمم المتحدة قبلة الأنظار، وكعبة الآمال، وموضع ثقة الجميع وتفائلهم، ولم تكن الأمم المتحدة، وهي تتمتع بكل هذا الإعزاز وترى ضيق الناس بالحرب، واشمئزازهم

من الدمار ، قديرة على البحث بصبر وحذر في الأعماق البعيدة للمشاكل كانت تعتقد أنها ، بتأييد الجنس والإذعان البشري الذي كانت تخيله مجمعاً على طاعتها والرضوخ لحلولها ، تستطيع أن تصنع المعجزات ، وكانت دولة إسرائيل من هذه المعجزات الوهمية .

ولم تنتظر الأمم المتحدة قيام دولة إسرائيل أولاً لتقول كلمتها ، وتنطق بحكمها في النزاع ، بل تسببت « نواياها الطيبة في السلام » في إعطاء صفة رسمية لإسرائيل قبل قيام إسرائيل بستة أشهر تقريباً ، ففي ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، صدر عن هيئة الأمم المتحدة قرار ملزم بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب ، كان قراراً ملزماً لأنه حاز أكثر من أغلبية ثلثي الأعضاء ، ومع ذلك فلم يكن هذا القرار يحمل أية سمة للعبقرية المبدعة المنتظرة من الأمم المتحدة ، صانعة المعجزات ، ففكرة « تقسيم فلسطين » لم تكن إذ ذاك بالفكرة الجديدة المبتكرة ، كانت بقعة من بصمات أصابع الاستعمار القذرة أفلتت من حرص منظمة السلام العالمي على الغسيل والتنظيف ، ولنحاول بيان طرف من ذلك .

اندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ كنهاية رهيبة لصراع من قبل الدول الأوروبية على السيطرة على أسواق العالم ومواطن الخامات الصناعية فيه ، كانت إنجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا وبلجيكا تتناحر على استعمار أوطان الإنسانية المتخلفة في آسيا وإفريقيا . وبقيت منطقة الشرق الأوسط مستعصية على هذا الامتعمار ، لأنها كانت جزءاً من الخلافة الإسلامية التركية التي أقامها العثمانيون في القسطنطينية منذ أواسط القرن الخامس عشر ،

ولكن تركيا كانت قد ضعفت مالياً وعسكرياً على مدى القرن التاسع عشر وراحت مستعمراتها الأوربية ذات الأكتريية المسيحية تستقل الواحدة تلو الأخرى فى البلقان وشرق أوربا ، كما بدأت المشاكل الإقليمية والقومية تظهر بكامل قوتها لتقوض ما بقى من تماسك امبراطورية آل عثمان الأكراد ، الأقليات المسيحية فى غرب آسيا كالأرمن والوارنة والروم الأرثوذكس ، والعرب بوعينهم الحضارى والوطنى ، كل هذا وضع ميراث هذه الامبراطورية على مائدة المطامع السياسية الأوربية ، وكان سبباً من الأسباب التى دارت من أجلها رحى الحرب العالمية الأولى ، بل لعله كان أهم الأسباب .

ووجدت انجلترا ، وهى تخوض غمار هذه الحرب ، وتكاد من الإجهاد تفقد أنفاسها ، وجدت قوة خفية تعاود الدخول بها فى المعركة ، هى تسخير اليهود لأهدافها ومطامعها ، وكان اليهود قد استولى عليهم حلم قديم بلوره لهم تيودور هرتسل تحت شعار « الصهيونية » ، وجمع مندوبين عنهم لتخطيط سياسة هذه المنظمة الجهنمية فى المؤتمر الصهيونى الأول ، الذى انعقد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، وتعاقبت بعده المؤتمرات ، ومات هرتسل سنة ١٩٠٤ وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، تاركاً وراءه كتابه « دولة اليهود » وحزبه « الصهيونية العالمية » ، وخليفته « حاييم وايزمان » ، وكانت الصهيونية تتقدم بطيئة جداً لقللة إيمان اليهود ببرنامجها ، وخوفهم من نوع الحياة التى تخيلها لهم زعماء هذه الحركة فى فلسطين ، يضاف إلى هذا ، العقبات الطبيعية التى كان لا بد أن تقوم فى وجه الاستعمار اليهودى لفلسطين من جانب الدولة العثمانية والأمة العربية ، نظراً لكون فلسطين أرضاً

مقدسة دينياً منهم جميعاً ، فيها الصخرة الشريفة ، والحرم الإسلامى ، أول القبلتين ، وفيها أيضاً مسقط رأس المسيح ، ومسرح جهاده ومنتهى أمره من هذه الدنيا .

أحست انجلترا بأن وضعها لليهود فى الميزان سيرجح كفتها ، وقبل اليهود اللعبة ثقة منهم بأن النزاع حول فلسطين إذا انتقل فى المستقبل يكون مع انجلترا بدلا من العرب والأتراك فإنه سيكون نزاعاً هيناً خفيفاً لطيفاً ، لا يدخل فيه الحرص على المقدسات بقدر الحرص على المصالح ؛ وفلسطين بعد كل شئ ليست وطناً للانجليز ، وليس لهم فيها حرم أو قبلة ، كما أنهم ليست لهم حدود مشتركة معها .

وبدأت المساومات حول الموضوع بين الانجليز واليهود وليس لأى منهما وجود فى فلسطين : الانجليز فى مصر ، وأساطيلهم فى البحر الأبيض ، واليهود فى كل مكان ، وأمورهم تتحكم فى أكثر مقدرات العالم وأرزاقه ، وهكذا تمت الخطوة الأولى لتهود فلسطين ، بين طرفين لا يملكان فيها شيئاً ، الطرف الأول هو وزير خارجية بريطانيا « بلفور » ، والطرف الثانى هو اللورد « روتشيلد » ظاهرياً ، « وحايم وايزمان » من وراء ستار ، بل كان وراء هذا الستار أكثر من يهودى يلعبون لعبتهم فى الظلام ، وفى مقدمتهم الجاخام الأكبر « هيرتس » ، الزعيم الروحى والكاهن الأعظم ليهود بريطانيا وما وراء البحار ، على كل حال ظهر تصريح بلفور يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ يعد لليهود بنصيب فى فلسطين عند نهاية هذه الحرب .

كان اليهود قد مهدوا الطريق لتجميع كلمتهم قبيل تصريح بلفور على تأييد إنجلترا تحت شعار « المصالح المشتركة » ، ونذكر من هذه التحركات أن أحد الجواسيس العسكريين من غلاة الصهيونية ، وهو « يوسف ترومبلدور » كان قد وقع في يد القوات التركية في فلسطين ، ولكنه فر من سجنه أثناء الحرب وجاء خلسة إلى القاهرة ، وهنا التقى بزعيم الإرهابيين الصهيونيين اليهودي المتطرف « زئيف جابوتنسكى » ، واتفق معه على إنشاء « جيش يهودى صهيونى » يحارب العرب والأتراك تحت الراية البريطانية ، وفى صيف ١٩١٦ ، بعد موقعة غاليبولى بين الأتراك والحلفاء الأوربيين ، سافر الاثنان إلى لندن حيث بدأ باستقطاب المتطوعين اليهود ، وتكونت منهم الفرقة الثامنة والثلاثون البريطانية ، تحت قيادة الكولونيل الانجليزى المسيحى « باترسون » ، أما ضابط الاتصال المباشر ، والعقل المنظم لتحركات هذه الفرقة والمشرف على تنميتها وتدريبها فقد كان ترومبلدور . ودخلها جابوتنسكى نفسه كجندي بسيط ، ثم رقى بعد ذلك إلى درجة ملازم ، تقديراً من القيادة البريطانية لما يبديه من حماسة وهمة وإخلاص .

تلقت هذه الفرقة تدريباً نهائياً فى الاسكندرية ، ثم صدر لها الأمر مع تصريح بلفور - وهذه طبعاً ليست مجرد صدفة - بالتحرك فى اتجاه فلسطين مع الجيش البريطانى الزاحف عليها بقيادة الجنرال اللنبي ،

وفي أرض سيناء ، وهذه الكتيبة الصهيونية تقترب من حدود فلسطين
أصدر جاپوتنسكى الأمر اليومى العسكرى التالى :

اسمع يا إسرائيل^(١) . أنصت لصوت قلبك . إن ساعة الاستيلاء على
فلسطين قد حانت وليس من المعقول أن نترك الناس من الأمم الأخرى
يستولون عليها . استمع لصوت عقلك ، ليس من المنطقى أن يحارب
الانجليز هنا أمام أعيننا ، ونحن قاعدون فى بيوتنا إلى أن يعيدوا إلينا
هذه البلاد وقد أخذوها بدمائهم ، أنصت لما يقوله لك شعورك بالكرامة .
هل من الممكن أن نقبل هدية كهذه ممن استولوا على تارك الأرض
بمجههم دون أن نبذل أرواحنا معهم جنباً إلى جنب ؟ إن دماء آبائنا
التي سالت على هذه الأرض نذ آلاف السنين ، ودم الانجليز الذين
يساعدوننا اليوم فى الاستيلاء عليها لدم مقدس ، وهو يهيب بنا من
ثرى هذه الأرض أن هبوا للقتال . فلنخرج إلى ميدان المعركة نحن
ومحررونا معاً ، ومن الله النجاة ، فاشتدوا وتشجعوا .

وكاتب هذه السطور الملتهبة ، التى يقدر فيها دماء الانجليز ، هو
نفسه الذى جمع من حوله كل المتعصبين المتطرفين من اليهود ، وقد
استقروا فى فلسطين تحت الراية البريطانية ، فأهدر لهم دم الانجليز ،
وأمرهم بقتلهم هم والعرب سواء بسواء ، ولكن بين الموقفين كانت
أحداث وأحداث .

(١) بهذه الجملة تبدأ الصلاة عند اليهود ، وامتعلمها صاحبنا هنا نازيد من التأثير النفسى .

في شهر فبراير سنة ١٩١٨ وصل الطابور الأول من فرقة اليهود هذه إلى فلسطين تحت قيادة الكولونيل باترسون . وما إن خطت أقدامهم الحدود حتى رفعوا الراية الصهيونية ذات النجمة السداسية ، وقد كتبوا عليها « إن نسيبتك يا أورشليم فلتتركني يميني » وهي آية من المزمور رقم ١٣٧ من مزامير داود - وهذا المزمور بالذات ليس لداود على التحقيق ويرجع تاريخه إلى ما بعد داود بنحو خمسمائة سنة ، حيث كان اليهود القدماء يبكون به وهم في أسر بختنصر بأرض بابل ، ويحنون إلى صهيون ، وقد جعله هرتسل شعاراً ونشيداً يجمع به الصهاينة من كل مكان .

وشاعت الظروف في نفس تلك الفترة الحرجة من تاريخ العالم أن تتحرك قوة أخرى لها وزنها الهائل في الصراع الدولي عموماً وفي نشأة ولة إسرائيل بوجه خاص ، وهي الشيوعية العالمية ، فقد وجدت الفلسفة المادية الجدلية التي أقام بناءها « كارل ماركس » و « فريدريك انجلز » ، وفسرأها تطور البشرية عبر التاريخ ، أرضاً خصبة في روسيا التي كان شعبها يرزح تحت أثقال قيصرية متجمدة لا تريد أن تساير الزمن ، ووجد الشباب في المدن الروسية بريقاً أخذاً لهذه الفلسفة الجديدة ، وجدوا فيها ما يشفي حقدهم على الإقطاع لأنها تقول بشيوعية الممتلكات ، وتحريم الملكية الخاصة ، ووجدوا فيها راحة لأنفسهم من الكبت والتقييد الذي كانوا يتعرضون له باسم الدين مطبقاً على يد الكنيسة الروسية الأرثوذكسية المائلة للقيصر وللإقطاع ، فالماركسية فلسفة علمانية إلهادية تتنكر للكهنوت كما تتنكر للرأسمالية والإقطاع وحول هذا توابل ومشهيات أخرى من العدالة الاجتماعية ، والسلام

العالمى والنهائى ، والحرية الكاملة لأبناء البشر جميعاً ، والعجيب أنه فى نفس الوقت الذى يحمل فيه يهود أوروبا الغربية وأمريكا لواء الرأسمالية والاستعمار والامبريالية ، حمل اليهود الروس فى أوروبا الشرقية لواء الماركسية الشيوعية ، وتمت ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ التى أطاحت بالحكم القيصرى ، وأقامت الاتحاد السوفيتى مكانه ، وفى أثناءها فوجئ الشعب الروسى بالكثرة المذهلة من اليهود الذين قفزوا إلى الصفوف الأولى من ثورتهم الشعبية ، الأمر الذى جعل الخطوات الأولى لهذه الثورة الشعبية تنزلق إلى ما يشبه الحروب الأهلية فى سبيل تطهير صفوفها من الطفيليات اليهودية العالقة بها ، ولكن بقى الكثير ، والكثير جداً ، من بنى إسرائيل فى صفوف الشيوعية الروسية والشيوعية العالمية ، حتى أصبح ذلك وصمة يهاجم بها أعداء هذا المذهب خصومهم متهمين إياهم بالتواطؤ مع اليهودية العالمية أو على الأقل بالغباء والغفلة لدرجة الوقوع فى براثن اليهود .

والذى يهمننا من ذلك كله ، هو الإشارة إلى ذلك الوضع الفريد الممتاز الذى وجد اليهود فيه أنفسهم ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، فيهود أوروبا الغربية وأمريكا يجنون الثمرات السياسية والاقتصادية ، لانتصار كلف غيرهم الملايين من القتلى والجرحى ، ويهود أوروبا الشرقية يستغلون الاشتراكية الماركسية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، إما بإبراز شخصيات صهيونية قيادية ، وإما بتهريب الأموال إلى فلسطين ، وإما باستجداء معونة اليهود الغربيين المالية لتهجير الآف المؤلفين من يهود شرق أوروبا إلى فلسطين .

أما ما كان من أمر فلسطين بعد دخول البريطانيين - ومعهم
كتيبة المتطوعين اليهود - فإنها بقيت قرابة عام ونصف في قبضة
السلطة العسكرية المطلقة ، في هذا الوقت كانت أمواج من المهاجرين
اليهود من روسيا ورومانيا وبولونيا والمجر والنمسا وغيرها من بلدان
أوروبا الشرقية تتقاطر مع مجموعات كثيفة من يهود ألمانيا المنهزمة
في الحرب أيضاً ، ولم تكن معاهدة فرساي التي أنهت الحرب العالمية
سنة ١٩١٨ قد استطاعت أن تكيّف شكل الحكم في فلسطين ، ولا مصير
الناس بها ، كان الانجليز هم ذوو الأمر المطلق ، وبالتبعية كان هذا
الأمر المطلق متروكا لليهود ، وأخيراً تجرأت الدول المتحالفة فأعلنت
في مؤتمر « سان ريمو » أنها لن توافق على « احتلال » أو « استعمار »
لأى من البلاد التي دخلتها قوات الحلفاء ، نظراً لأن ذلك يناهى « حق
تقرير المصير » ، الذي وافقت عليه ، ولأجل ذلك فقد اخترع لفظ
اصطلاحى آخر يتستر وراءه الاحتلال والاستعمار ، وهو « الانتداب »
وهكذا تقرر في سان ريمو وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وكان
ذلك في ابريل ١٩٢٠ وقد وافقت « عصبة الأمم » على قرار سان ريمو
بعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام .

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى التعاون الوثيق الذى كان بين اليهود
والانجليز في فلسطين ، بل الذى تعدى فلسطين ليكون تحالفاً بين
الطرفين على السيطرة على مقدرات البلاد والعباد في كل مكان في الشرق
الأوسط ، وبخاصة في مصر والعراق ، حيث كان اليهود من أقرب
المقربين إلى الهيئة الحاكمة ، وإلى السلطات البريطانية التي وضعتها
في الحكم . وكانت المساعدات المالية والسياسية تصل باستمرار من

يهود مصر والعراق إلى المشروع الصهيوني في فلسطين، كل هذا والاستعمار البريطاني مسرور كل السرور لأنه وجد غنيمة باردة ، وأرضاً خصبة يسرح فيها ويمرح ، وشاءت له ظروفه الحسنة أن تصل معه كلاب الحراسة أيضاً ممثلة في هؤلاء اليهود من أتباع - الصهيونية .

لذلك لم نأل انجلترا جهداً في سبيل تهيئة الظروف المناسبة لها ، بل راحت تقمع العرب بكل شدة وقسوة إذا هم أبدوا بعض القلق على مصيرهم في وطنهم ، أو ثاروا لما يرونه من اغتصاب اليهود لقطع من هذا الوطن هنا وهناك . هكذا ضربتهم بريطانيا سنة ١٩٢٠ سنة ١٩٢١ سنة ١٩٢٩ . الخ . وفي الجهة الأخرى نراها تعين يهودياً بريطانياً صهيونياً ليكون المندوب السامي الأول لصاحب الجلالة ملك بريطانيا في فلسطين ، وكان هذا الرجل هو السير هربرت صمويل ، الذي نال لقب لورد فيما بعد ، لقد سمع يهود الغرب بهذا النبأ فرقصوا فرحاً ، وعانق بعضهم بعضاً ، وذهبوا في السنة التالية يحجون إلى فلسطين ، ليروا اليهود هناك يتزعمهم حاكم يهودي ، وهو أمر لم يحدث لهم منذ نحو من ألقى سنة .

ولا يستطيع الباحث في ثنايا تاريخ الحرب العظمى ، والثورة الشيوعية الروسية بالنسبة لليهود ، أن يغفل اعتبارات أخرى لعبت دوراً أساسياً في تمكين الصهيونية من اغتصاب فلسطين واحتلالها .

فعلى أثر انفجار الثورة الشيوعية في روسيا ، في أكتوبر سنة ١٩١٧ بدأت شعوب كاملة كانت مستعبدة للتاج القيصري تنفصل عن روسيا وتعلن استقلالها ، وفي مقدمة هؤلاء بولونيا التي أعلنت نفسها جمهورية

حرة ذات سيادة ، وأقرت الدول الأوروبية بذلك ، والذي يعيننا من تلك الظاهرة هو أن روسيا القيصرية بحدودها القديمة كانت تضم الجزء الأكبر من يهود أوروبا ، إذ كان عدد اليهود الخاضعين لسلطان القيصر يزيد على ستة ملايين ، ولما حدث هذا التفتت في الممتلكات القيصرية ، هبط عدد اليهود الداخلين في حدود الحكومة الثورية الشيوعية الجديدة إلى النصف ، بينما ظل النصف الآخر يعيش وسط شعوب ناشئة وحديثة الاستقلال ، وهذه الظروف هيأت لكلا الشطرين من اليهود في داخل روسيا وخارجها ، فرصاً للنشاط السياسي العنصرى ، ولخلق ولائى قومى يهودى لا يعبأ بالحدود ولا القوانين ولا الأوطان ، وكان ذلك مما أعطى دفعة قوية للصهيونية .

وعلى أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى في نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وفى أثناء محادثات السلام فى باريس قام المؤرخ والدبلوماسى اليهودى لوسيان وولف (١٨٥٧ - ١٩٣٠) بإثارة موضوع لم يكن فى الحسبان ، وطرحه على بساط البحث فى المجتمع الدولى ، وهو موضوع « الأقليات » وكانت الخدعة السياسية هنا تتنكر فى زى إنسانى رفيع ، هو المطالبة بحماية الأقليات وضمان أمنهم ومساواتهم فى الفرص والحقوق المدنية ، بغض النظر عن أجناسهم أو أديانهم ، وأفلاح الرجل فى أن تكون لهذه الأقليات وفود فى المجتمعات الدولية أغلبيتها الساحقة من اليهود ، كما أفصح فى إدخال بنود كاملة لمصلحتهم فى جميع معاهدات الصلح ، وفى دساتير حكومات أوروبا الشرقية التى ولدت دولها المستقلة على أثر هذه الحروب العالمية ، وتلك الثورة الروسية ، وفى مقدمة أوامرك رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ولتوانيا واستونيا ولاتفيا وبولونيا .

ولكى نستكمل صورة النفوذ اليهودى فى العالم عند بداية تنفيذ المشروع الصهيونى تنفيذاً نشيطاً محموماً مليئاً بالحماس ، ينبغى أن نعرف أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تضم نحو خمسة ملايين من اليهود ، وقد كانت هجرة يهود أوروبا إلى أمريكا بعد اكتشافها تجرى فى نطاق ضيق جداً لا يكاد يستحق الذكر ، ذلك أن يهود أسبانيا ، بعد تحطيم الإسلام فى هذه البلاد ، وطرد العرب منها ، قد آثروا أن يهاجروا إلى ما بقى من بلاد المسلمين فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، لما كانوا يلقونه فى ظل الإسلام من تسامح وعدالة وحسن معاملة ، فهاجر كثير منهم إلى بلاد المغرب وشمال أفريقيا ، واتجه آخرون إلى مصر والشام والعراق وتركيا ، وراح بعض اليهود يلتمسون الحياة فى بعض بلدان الساحل الشمالى للبحر الأبيض ، وبخاصة فى البندقية وبعض بلاد البلقان ، ولكن مع ضعف الدولة العثمانية ومع الاضطهاد الدينى والعنصرى الذى كانت تمارسه الأمم المسيحية فى أوروبا وأوروبا الشرقية على الخصوص ، وبعد دخول العالم المتحضر فى عصر الرأسمالية الصناعية الضخمة ، وازدهار هذه الظاهرة فى أمريكا بالذات ، انطلقت فى القرن التاسع عشر هجرات كثيفة جداً من اليهود نحو الولايات المتحدة ، وكانت قد سبقتهم إليها جموع إسرائيلية سيطرت على المال والأعمال بشكل ملحوظ فى هذه البلاد ، وأصبحت نقط ارتكاز لهذه الموجات الجديدة ، ومن أشهر هؤلاء : كوهن و لويينب وشركاؤهما ، وهم من أكبر أصحاب المؤسسات المالية الأمريكية ، ومنهم جاكوب شيف (١٨٤٧ - ١٩٢٠) أحد كبار رجال الأعمال وزعماء المجتمع اليهودى فى أمريكا ، ومنهم ناثان شتراوس

١٨٤٨-١٩٣١ ، ويقولون : إنه هاجر من أوروبا إلى الولايات المتحدة فقيراً معدماً ، ثم أصبح بسرعة من أصحاب الملايين ويذكرون عنه أنه لم ينس الفقراء بعد أن تضخمت ثروته ، وفي مقدمتهم فقراء اليهود ، الذين عاونهم بالمال والغذاء والكساء ، وكان أخوه أوسكار شتراوس (١٨٤٥ - ١٩٢٦) من كبار رجال السياسة الأمريكية ، وصل إلى منصب الوزارة ، كما كان سفيراً للولايات المتحدة في بلاد كثيرة من العالم منها تركيا ، ويذكر اليهود من الأسماء التي يفخرون بها في الدنيا الجديدة لويس براندايس (١٨٥٦ - ١٩٤١) وبنيامين كارڤوزو (١٨٧٠ - ١٩٣٨) وكانا من أكبر رجال القانون في البلاد ووصلا إلى رئاسة المحكمة العليا للولايات المتحدة ، وقد خلفهما في هذا المنصب يهود آخرون ، منهم فليكس فرانكفورت وأخيراً جولد بروج ، الذي كان يمثل أمريكا في هيئة الأمم المتحدة أثناء الصراع العربي الاسرائيلي ، ومن كبار أغنياء اليهود الأمريكيان يوليوس روزنفالد (١٨٦٢ - ١٩٣٢) ، ويعتبر من كبار المحسنين والتبرعين بالمال للمشروعات اليهودية المختلفة ، كما أنه تولى تحسين الوضع الاجتماعي للسود في أمريكا ، وفي ميدان الفكر السياسي الأمريكي برز من اليهود موريس هيلكويت (١٨٦٩ - ١٩٣٣) ويعد من أساطين الاشتراكية الأمريكية ، وسمويل جومبرز (١٨٤٧ - ١٩٢١) الذي يرجع إليه الفضل في قيام الاتحاد الأمريكي للعمال .

وفي نفس تلك الفترة كانت الأسماء اللامعة لليهود ذوي النفوذ تزدهم بعضها إلى جانب بعض ، فاليهودي البريطاني السير جون موناخ

(١٨٦٥ - ١٩٣١) ، يقود القوات الاسترالية أثناء الحرب العظمى ،
ونجد يهودياً بريطانياً آخر يتسلق إلى أسمى المناصب هو « روفوس
أيزاكس » (١٨٦٠ - ١٩٣٥) الذى رأس محكمة العدل فى إنجلترا
ووقع عليه الاختيار سفيراً فوق العادة لدى الولايات المتحدة ، ثم
عين سنة ١٩٢١ حاكماً عاماً للهند بالنيابة عن صاحب الجلالة
البريطانية ، وبقى فى هذا المنصب خمس سنين ، ونستطيع أن نذكر
هوجوبروس (١٨٦٠ - ١٩٢٥) الذى تولى وزارة الداخلية فى ألمانيا ،
وكذلك كورت آيزنر (١٨٦٧ - ١٩١٩) رئيس وزراء بافاريا ،
وفيككتور آدلر (١٨٥٢ - ١٩١٨) وزير خارجية النمسا ، وقد سبقت
الإشارة إلى أن أوائل المجالس السوفيتية العليا بعد ثورة أكتوبر كانت
يهودية بنسبة عالية جداً .

وهذه الصورة المصغرة جداً لأطراف الأخطبوط الإسرائيلى التى كانت
تحكم قبضتها على العالم ، كان يقابلها فى العالم العربى والإسلامى سبات عميق ،
فقد أرادت الخلافة العثمانية ألا تنعقد أية صلة بين ممتلكاتها فى بلاد العرب
والمسلمين وأوروبا ، إلا من خلالها هى ، وتحت رقابتها ، وفى سبيل
مصالحها الخاصة وظل الأمر على هذا النحو ، لم يخف قليلاً إلا بعد
الهزة العنيفة التى تلقاها الشرق ، ومصر على الخصوص ، على يد
نابليون بونابرت ، هنا فقط بدأت بعض الخواطر تتجه إلى أوروبا
وحضارتها ، لكن كان ذلك فى صبغائر الأمور فقط ، أما العصب الأساسى
للحضارة الأوروبية إذ ذاك ، وهو الإنتاج الصناعى الواسع ،
والتجارة العالمية ، وفتح الأسواق ، والتوسع فى إنتاج الخامات فقد

ظل في المكان الثاني ، وهو أمر مكن أصحاب المطامع الصهيونية فيما بعد من إقناع القوى الأوروبية والأمريكية بأن وجودهم في المنطقة سيكون خدمة لأهلها ، وسيؤدى إلى إخراجهم من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

والعجيب أن كثيراً من الأوربيين قد خدعوا بهذه القضية الخاطئة الظلمة وراحوا يساعدون على ترويجها بالكتب والمؤلفات والتقارير والمقالات ، ونخص بالذكر منهم ، على سبيل المثال فقط لا لأهمية معينة ، الصحفي الفرنسي ألبير لوندرا صاحب كتاب « اليهودى التائه رجع » وهو مجموعة مقالات يشيد فيها سنة ١٩٢٩ بالجهود الصهيونية في التعمير والإنشاء في فلسطين ، وسط مجتمع من الجلابيب والطرايش والفهاوى الحافاة بالمدخنين في النرجيلة .

كان الغرب يظلم العرب والمسلمين ، إمّا عمداً ولحاجة في نفس يعقوب ، وإمّا لأنه مخدوع بالدعاية اليهودية الصهيونية ، ومع ذلك فقد كانت هناك أصوات شرقية وعربية تنبعت بين الحين والحين معبرة عن رفض المخطط الصهيونى منذ البداية ، ولكن كان ينقصها التنسيق ، كما كانت تعوزها وسائل الانتشار بين الجماهير ، لقد قام في مقدمة هذه الأصوات في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن العشرين ، أى مع بداية الحركة الصهيونية تماماً ، كاتب عربى مسيحي من فلسطين هو نجيب غازورى ، الذى كان في وقت ما نائباً

للمحافظ التركي لمدينة القدس ، وطلب من السلطات التركية على أثر المؤتمر الصهيوني الأول مجموعة من التنظيمات المناسبة للموقف الجديد ، وأهمها :

١- الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

٢- الرقابة الشديدة على امتلاك الأراضى أو استثمار الأموال بواسطة اليهود .

٣- السماح للقومية العربية بالتعبير عن نفسها بحرية فى المجتمعات الدولية .

٤- تحسين حالة المواطن العربى الفلسطينى من الناحية الاقتصادية والحضارية .

٥- إعطاء الخطر اليهودى على الشرق الأوسط ، وعلى السلام العالمى ، ما يجب من الأهمية .

وبالطبع لقي هذا الرجل عنثاً شديداً من السلطات التركية التى أهتمته بالفوضوية ومحاولة تأليب الأقليات الدينية والعنصرية فى داخل الخلافة العثمانية ، فلم يسعه إلا أن يهاجر إلى أوروبا ليستمر فى دعوته ضد الخطر اليهودى ، وليعقد الصلة بين المصالح الصهيونية والمصالح الاستعمارية ، وفى باريس أسس « رابطة الوطن العربى » ونشر فى بداية عام ١٩٠٥ كتاباً باللغة الفرنسية على أكبر جانب من الأهمية جعل عنوانه : « يقظة الأمة العربية » ، والكتاب يعتبر وثيقة تاريخية تثبت أن الضمير العربى لم يكن فى غيبوبة تامة إبان تفسخ الامبراطورية العثمانية ، وتحفز الصهيونية والاستعمار ، فقد قسمه مؤلفه بعد تصدير

ومقدمة قصيرة إلى تسعة أبواب : جعل الأول منها في وصف فلسطين جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً ، والتنبيه إلى الأوضاع الخطيرة التي أدى إليها فساد أجهزة الحكم ، وضعف الرقابة عليه في هذه البلاد ، مما عرضها للمطامع اليهودية والمؤامرات الاستعمارية .

وتتابعت الأبواب بعد ذلك لبيان الأعياب السياسات الأجنبية في فلسطين ومنطقة الشرق الأوسط كلها ، فتناول بالتحليل موقف كل من روسيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا ، والولايات المتحدة والفاشيكان ، ثم ختم ذلك كله بتشريح موقف السلطنة العثمانية ، وبين خطر الاستعمار والصهيونية الذي يتهدد فلسطين .

فهذه ضجة عربية مبكرة جداً ، خنقت في مهدها ، لأنها كانت وحيدة في الميدان ، ولأنها لم تعرف تماماً إلى أين تتجه ، ولكنها على كل حال صريحة رفض ، صريحة في إبائها ، علمية دقيقة في تشريحها وتحليلها لمصادر الشكوى ، وقد أعلن نفس المؤلف عن ثلاثة كتب أخرى يقوم بإعدادها ، عنوان أحدها « الوطن العربي » ، وهو كما يقول دراسة متعمقة للوضع الحالي للبلاد العربية وتصوير لمستقبلها ، أما الكتاب الثاني فعنوانه « الخطر اليهودي العالمي » ، وهو توجيهات ودراسات سياسية ، وثالث هذه الكتب عنوانه « القوى الأجنبية ومشكلة الأرض المقدسة » ، وقد حاولنا التحقق من نجاح نجيب عازورى في نشر هذه الكتب ، ولكننا لم نستطع الحصول على ما يشبه ظهورها . بل أن كتابه الأول الذي أشرنا إليه وإلى موضوعه وأبوابه قد اختفى إلا النادر من النسخ في بعض المكتبات ، ونحن نعلم أن

اليهود مشهورون في العالم كله بتدمير كل كتاب يحاول أن يفضح مؤامراتهم .

ولعلنا نستطيع الآن أن نتصور الدوامات الرهيبة التي دارت فيها فلسطين مع ظهور الصهيونية، واتحاد أهدافها مع أهداف الاستعمار فقد عاش اليهود في ظل الانتداب البريطاني، مفروضين بالقوة على عرب فلسطين .

وعادت الثورة العربية تندلع من جديد في وجه الهجرات اليهودية الضخمة سنة ١٩٣٦ ، وفي هذه المرة كان الدافع لهذه الهجرات هو نجاح الحزب النازي في ألمانيا بزعامة أدولف هتلر في الوصول إلى الحكم ، ثم تكوين حلف بين هذه النازية الألمانية والفاشية الإيطالية التي كان يقودها بنيتو موسوليني .

كانت ألمانيا ما تزال تطوى ضلوعها على رغبة قوية في الانتقام لهزيمتها المريعة سنة ١٩١٨ ، وكانت إيطاليا تحلم بالامبراطورية الرومانية القديمة ، لتحقيق سيادة شعبها على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت كلتا الدولتين تحقدان على إنجلترا وفرنسا لاستئثارهما بنصيب الأسد في الاستعمار في آسيا وإفريقيا ، ولإغلاقهما الأسواق وموارد الثروة الطبيعية مما وضع الألمان والإيطاليين في حالة شديدة من الضيق المالى وانخفاض مستوى المعيشة، وكانت ألمانيا بالذات لا تنسى لليهود الألمان جرائم رهيبة في التجسس ، والتلاعب بالاقتصاد الألماني ، وتهريب أسرار الأسلحة والمعدات الحربية الجديدة إلى إنجلترا في أواخر الحرب العالمية الأولى ، مما كان له أكبر الأثر في الهزيمة التي لحقت بها ، وكان حايم وايزمان نفسه في مقدمة المتهمين .

ورأى الألمان النازيون أن يحاربوا اليهود بنفس السلاح القديم الذى اخترعه اليهود لأنفسهم وهو العصبية العنصرية ، فبنى مفكروهم فلسفة أساسها العصبية للجنس الجرمانى الآرى ، باعتباره سيد الأجناس جميعاً ، وجعلوا الجنس اليهودى فى تصنيفهم العنصرى من أحق وأقذر الأجناس التى تعيش على هذه الأرض ، وانطلاقاً من هذه الفلسفة تابعت تشريعات التفرقة العنصرية ، ومخططات اضطهاد اليهود والتضييق عليهم تمهيداً لمحاولة إبادتهم نهائياً ، فأصيب اليهود بذعر شديد ، وبدأ الكثيرون منهم يفكرون فى النجاة بأنفسهم ، وتنبهت « الوكالة اليهودية » فى تل أبيب ، التى كانت تمارس نشاطها منذ عام ١٩٢٩ بزعامه دافيد بن جوريون لهذا الأمر ، كما تنبّهت له الصهيونية العالمية كلها ، وبدأ تشجيع الهجرة يأخذ شكلاً منهجياً واضحاً ، ومحددأ ، نحو فلسطين بالذات .

وإزاء هذا الوضع ثار عرب فلسطين كما قلنا ، وحاول الانجليز مستعينين بالشرطة اليهودية فى فلسطين ، وببعض المنظمات الإرهابية الصهيونية ، كبح جماح هذه الثورة ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً لجأ الانجليز إلى طريقتهم التقليدية فى تمييع الموقف ، وتنويم الثائرين فأرسلت انجلترا لجنة ملكية لتقصى الحقائق سنة ١٩٣٧ ، وتفتقت قريحة هذه اللجنة عن : « مشروع تقسيم » لفلسطين بين العرب واليهود ، حاز موافقة الأغلبية من أعضائها فقط وخلاصة هذا المشروع هو جعل فلسطين إقليمين منفصلين متميزين أحدهما لليهود والآخر للعرب ، ورأت هذه اللجنة أن تكون هناك فترة انتقالية لتهيئة تنفيذ

المشروع مدتها سنتان يتم في أثنائهما تهجير عدد جديد من اليهود حدوده بمائة وخمسين ألفاً ، وقد جعلت هذه اللجنة الإقليم اليهودي يحتوى على مرج ابن عامر بسهول يزرعيل ، ومنطقة الجليل الشرقى وكذلك الساحل الفلسطينى من حيفا إلى تل أبيب ، يضاف إلى ذلك منطقة النقب على الحدود المصرية ، أما القدس فقد رأت هذه اللجنة أن تشرف على إدارتها وكالة دولية ، بينما تؤول مناطق الجليل الغربى ومرتفعات نابلس وطولكرم ورام الله وقلقيلية ، وكذلك منطقة يافا وبيت لحم والخليل وغزة ، إلى العرب .

وقد تكرر هذا الحل مرة أخرى في نوفمبر سنة ١٩٤٥ عندما اقترحه السياسى البريطانى « بيفين » ، وقد كان ذلك أيضاً على أثر اضطرابات شديدة جداً نشبت بين العرب واليهود في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان العرب قد طالبوا انجلترا بتطبيق نصوص الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ والذي كان يقضى بجعل مناطق من الأرض الفلسطينية « محظورة » بالنسبة للاستيطان الصهيونى ، طبقاً لاقترحات لجنة التقسيم السالفة الذكر ، كما كان يقول بوقف هجرة اليهود إلى فلسطين بمجرد وصول عدد هؤلاء المهاجرين إلى نسبة معينة من مجموع السكان .

وإذا كانت اللجنة الملكية البريطانية التى أعدت تقريرها سنة ١٩٣٧ ، قد بذلت جهداً مخلصاً في محاباة اليهود ، والمساس الصارخ بأوضاع سكان فلسطين الأصليين ، مخالفة بذلك تعهدات انجلترا في تصريح بلفور ، فإنها كانت على الأقل صريحة ، وواضحة وواقعية .

لأن الامبراطورية البريطانية إذ ذاك ، على الرغم من كثرة مشاكلها ، كانت بعد قوية يحسب حسابها في العالم أجمع ، أما في أيام بيغين ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية بكل ضراوتها ، وبكل المشاكل الجسيمة التي خلفتها في المجتمع البريطاني ، وكل الأزمات السياسية التي ولدتها رغبة المستعمرات في التحرر قد أطاحت بالهيبة البريطانية ، فأصبحت هذه الدولة من دول الصف الثاني في المجتمع العالمي ، وبدأ الطموح الأمريكي يبسط نفوذه ، ويسعى إلى وراثة ما كان للانجليز والفرنسيين من سلطان على العالم ، وكان سعى الأمريكان إلى ذلك مضمون النجاح ، لأن الولايات المتحدة كانت في تلك الفترة تكاد تعول الشعبين الانجليزى والفرنسى ، مع من كانت تعوله من بلاد أوروبا التي أمهكتها الحرب ، ومن جهة أخرى فإن روسيا السوفيتية ، بعد أن تحمات مسؤوليات هائلة في النضال العالمي من أجل القضاء على النازية ، قد بدأت هي أيضاً تتعلم أظافر الاستعمار القديم ، وتدخل في تقرير مصير العالم من أوسع الأبواب .

لكل تلك الأسباب كان حتماً على بريطانيا أن تغير سياستها المبنية على القوة والوضوح ، وأن تلجأ إلى سياسة الضعف ، وهي سياسة المراوغة والنفاق وهكذا نلاحظ أنها في تلك الفترة كانت بمشروع بينين تمالي اليهود في فلسطين ، بينما كانت من جهة أخرى تشجع قيام جامعة الدول العربية ، وتحاول سياسة الملاينة إلى حد كبير إزاء المطالب القومية للعالم العربي . ومن هنا كان مشروع بينين متمضياً عليه بالفشل منذ ولادته . فلا اليهود تقنوا به ، ولا العرب رضوا عنه ، ولا استطاعت

انجلترا أن تقف بين الطرفين موقف الحكم المسموع الكلمة المهروب الجانب . وقد كان الجديد في مشروع بينيين هو مد مناطق الاستيطان اليهودى حتى تقع في قلبها مدينة القدس نفسها ، وهو تخطيط خبيث جعل مستقبل هذه البلدة المقدسة حتى الآن مظلماً محفوفاً بالأخطار .

وقد صحب ذلك ، بالرغم من قيام جامعة الدول العربية ، اختلاف شديد ومنافسات حادة بين الحكام والزعماء العرب ، كما صحبه تمزق وتفرق في الرأى العام للجماهير العربية نفسها ، وتفاوت شديد في مستويات المعيشة والثقافة ونظام المجتمع في مختلف البلاد العربية . وهكذا لم يستطع زعيم واحد أن يتحدث باسم العرب جميعاً ، بل لم يستطع زعيم واحد أن يتحدث باسم فلسطين العربية دون أن تثور في وجهه المعارضات ، وتكال له الاتهامات ، وتقام في وجهه العراقيل والعقبات . ولم يستطع العرب أن يستغلوا ظرف ما بعد الحرب ، على الرغم من أنهم قدموا للحلفاء المنتصرين على ألمانيا من التسهيلات والخدمات طوال مدة الحرب ما لم يجرؤ أحد حتى الآن على تقديم كشف حساب عنه . فالطرق ووسائل المواصلات والموانى والمطارات كانت كلها موضوعة في العالم العربى كله في خدمة الدول المحاربة للنازية . والبتروال العربى كله كان وقفاً على الاحتياجات العسكرية في ذات الوقت ، بحيث كان يصرف للمواطنين العرب للأغراض المنزلية بكميات ضئيلة جداً وبالبطاقات .

وكانت جيوش عربية في الأردن والعراق وفلسطين تشترك في المعارك تحت قيادة بريطانية سافرة أو مقنعة . بل كانت القوات

العسكرية المصرية نفسها تقوم بأعمال الدفاع الجوى عن الموانئ والمطارات ومخازن التموين والنقط الاستراتيجية للمواصلات واللاسلكى والرادار لصالح الحلفاء . وكانت الجيوش البريطانية والأمريكية وجيوش فرنسا الحرة التى يتزعمها الجنرال ديغول ، تحصل على أكبر جانب من تموينها بالغذاء والكساء من منتجات العالم العربى وخاصة فى مصر والسودان والعراق . كل هذا ذهب هدراً لأن السياسة العرب لم يطالبوا بثمنه ، ولم يكن بينهم من أوتى من اللباقة وشدة المراس ما يمكنه من الإفصاح بحجة هذه الشعوب العربية ، وفضلها فى وصول الحلفاء إلى النصر النهائى .

فى نفس هذا الوقت كانت الصفوف اليهودية ملتئمة . وكان لليهود متطوعون فى الجيوش الحليفة ، جعلوا منهم على قلة عددهم وتفاهة الدور الذى أعطى لهم فى الحرب أبطالاً ، وصناعاً للنصر ، ودعامة من دعائم العسكرية المتحالفة التى قضت على الهتلرية . وأدهى من ذلك وأمر ، أن هؤلاء المتطوعين اليهود كانوا يعتمدون على منتجات العرب فى غذائهم ، وكسائهم وتموينهم ، كما كانت بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها مفتوحة لهم ، يتعرفون عليها ، ويدرسونها ، ويرسمون خرائطها الجغرافية والعسكرية ، ويدرسون مشاكلها ، وأحوال المجتمع فيها ، كل ذلك بتوجيه من الوكالة اليهودية ، والهيئات الصهيونية العالمية ، والمنظمات العسكرية السرية لليهود فى فلسطين ، وشبكات الجاسوسية اليهودية المنشورة فى العالم كله .

كانت الفرقة اليهودية إذن ورقة يلعب بها اليهود على العرب والحلفاء جميعاً في زمن الحرب وما بعد الحرب . وكانت هناك إلى جانبها ورقة صهيونية أخرى استغلتها الهيئات الاسرائيلية لصالحها أحسن استغلال وهي اللاسامية « أو معاداة اليهود » فما إن أطاحت الحرب بالهتلرية ، حتى هب اليهود في جميع أنحاء العالم يخططون بنجاح للسيطرة على الجانب الأعظم من وسائل الإعلام والدعاية والرقابة .

واجتمعت لهم في فرنسا ، وانجلترا ، وأمريكا ، واستراليا ، وكندا ، والأرجنتين ، والبرازيل ، وفي كثير من بلدان الشرق الأقصى ، وأفريقيا ، إمكانيات في الصحافة ، والإذاعة ، والتليفزيون ، والنشر لعلها لم تجتمع لأحد غيرهم على طول تاريخ البشر .

وانطلقت هذه الأبواق كلها تحت ستار نشر الفضائح والفضائح النازية ، تصور للعالم أن اللاسامية « الهتلرية » هي التي أقامت الحرب . وأن اليهود أمة شهيدة ، تحملت وحدها كل مصائب الهتلرية وكل ويلات الحرب .

وانتقلوا من هذه الخطوة إلى خطوة أخرى جعلوا فيها من «اللاسامية الهتلرية» قضية قانونية بين الشعب الألماني بأسره والأمة اليهودية ممثلة - ولا ندرى لماذا - في الوجود الصهيوني بفلسطين . وجازت الخدعة على العالم كله ، واستقر في عقله الباطن أن الصهيونية في فلسطين وجود حتمي وشرعي ، وأن دافيد بن جوريون وحاييم وايزمان عندهما ما يشبه التفويض الإلهي للتحدث باسم اليهود جميعاً ، الأحياء منهم والأموات . وكان الأموات بالنسبة للمطامع الصهيونية أهم من

الأحياء ، لأنهم طلبوا من سلطات الاحتلال الحليفة في ألمانيا أن تبدأ بتعقب من له أدنى صلة باللاسامية من الألمان ، ومحاكمته وإعدامه ، أو الزج به في أعماق السجون مدى الحياة .

أما من استطاع الهروب من هؤلاء فقد أطلقت الصهيونية على أثره من يقتله حيث وجد ، أو من يحمله إلى تل أبيب لتقام له هناك محاكمات هدفها الدعاية والتلويح بالمقدرة الإسرائيلية على صنع المستحيل ، وكان من أشهر ذلك اختطاف السفاح الهتلري إيخمان من أمريكا الجنوبية ومحاكمته في إسرائيل ، وتنفيذ حكم الإعدام فيه بعد سقوط الهتلرية بعشرين عاماً . ولم تكتف الصهيونية بذلك بل طالبت ألمانيا بالتعويضات .

وفرضت على شعبها غرامات باهظة تقدر بآلاف الملايين من الدولارات ، ظلت ألمانيا تؤدبها لإسرائيل على مدى عشرين عاماً ، وكانت إسرائيل هي التي تحدد طريقة الأداء ونوع المدفوعات ، وكانت في أغلب الأوقات من الأسلحة والمواد الحربية التي استعملتها إسرائيل في قتل العرب وتشريدهم واغتصاب مساكنهم ، كل هذا ، وغيره من ألوان الظلم والاضطهاد والقتل والإجرام على روح ضحايا هتلر من اليهود . واستعمل اليهود تهمة اللاسامية ، بعد الحرب الثانية ، وبعد أن صارت بفضل الهتلرية من أبشع الجرائم وأشدّها عاراً على مرتكبيها ، استعملوها وسيلة للإرهاب السياسي في كل مكان ، أسقطوا بها وزراء في جميع أنحاء العالم ، وكتلوا بها اليهود ومن يستفيدون منهم في تكتلات سياسية هدامة ، من أشهرها التكتلات الشيوعية في العالم

العربي بعد الحرب العالمية الثانية . ولم يتورع المكر اليهودى عن اختلاق تهم اللاسامية وإصافها بالأبرياء ، ففي انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو أمريكا أو غيرها من بلدان العالم ، لا يكاد يظهر زعيم سياسى لا يرضى عنه اليهود ، حتى تبدأ حرب الإشاعات ، فإذا لم تفد فى هدمه ، وضع اليهود بأيديهم بعض المتفجرات بجانب معابدهم فى هذا البلد ورسما على جدرانها الصليب الهتلرى المعقوف وتركوا بعض المنشورات النازية المزورة ليوهموا الجماهير أن الحركة الجديدة غير المأجورة للمصالح الصهيونية حركة نازية تهدد السلام والإنسانية .

ومن ذلك كله نرى أن أبعاد التآمر الصهيونى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت قد تجاوزت طاقة بريطانيا السياسية ، وكانت قد ذهبت وأوغلت بعيداً جداً حيث لا يستطيع الصوت العربى ولا الحق العربى أن يكون مسموعاً أو ملحوظاً .

وفى داخل فلسطين نفسها بدأ قادة الصهيونية ينظمون قواهم العسكرية تحت اسم الانجليز وبصرهم ، وفى مقدمتها المنظمة العسكرية الوطنية « أرجون صبائى لثومى » ومنظمة المحاربين لأجل حرية إسرائيل « لوحى حيروت إسرائيل » التى اشتهرت باسم « جماعة شتيرن » وجماعة « الدفاع أوهاجاناه » وهى كلها مجموعات منبثقة فلسفياً من تعاليم أئمة الارهاب الصهيونى الأول ، وفى مقدمتهم أستاذ هذا الانجاه « جابوتنسكى » الذى وضع الأساس مع « تروميلدور » فى الحرب العالمية الأولى كما ذكرنا . بل ربما كانت جذور هذه العصابات العسكرية ترجع إلى ما قبل ذلك . فى عام ١٩٠٥ ، وكانت الشيوعية تعمل

سراً في روسيا القيصرية حدث صدام بين رجالها وبين القيصرية ، وكان في هؤلاء الشيوعيين الأول عدد كبير من اليهود الروس والبولونيين الذين يتدربون على أعمال التخريب والمقاومة وحمل السلاح . فلما فشلت حركتهم في روسيا سنة ١٩٠٥ هاجر عدد كبير منهم إلى فلسطين .

وما أن وصلوا إليها حتى اصطدموا بمقاومة عربية للاستقرار الصهيوني في تلك البلاد . فأنفوا سنة ١٩٠٧ منظمة سرية عسكرية إرهابية ، كان أهم أهدافها القيام بحملات انتقامية تأديبية دامية ضد عرب فلسطين ، كلما أبدوا معارضة للصهيونية . وأطلقوا على هذه المنظمة اسم منظمة « برجورا » إحياءً لذكرى المحارب اليهودي القديم « شمعون برجورا » الذي كان قد اشترك في قتال الرومان في فلسطين ، في الحوادث التي تم فيها تخريب الهيكل اليهودي الثاني سنة ٧٠ ميلادية ، على يد الامبراطور فسبازيان وابنه تيتوس ، وكانت هذه المنظمة تضم في البداية ثلاثة وعشرين صهيونياً ، من بينهم « اسحق بن صبي » الذي عاش إلى أن تولى رئاسة دولة إسرائيل ، بعد موت حاييم وايزمان وقبل رئيسها الحالي « زلمان شازار » ، وكان شعار هذه المنظمة : « بالدم والنار سقطت دولة اليهود ، وبالدم والنار ستقوم من جديد » وقد تحولت هذه المنظمة في ظل صهيونية ما بعد تصريح بلفور إلى الحزب الصهيوني المعروف « هشومير » وعلى الرغم من هذا الوضع غير المتكافئ بين الأمة العربية الفلسطينية الصغيرة المتخلفة ، المعزولة بفضل السياسات الاستعمارية عن الرأي العام العربي والإسلامي ، وعن المجتمع

الدولى الكبير وبين صهيونية متحفزة منظمة ، تساندها خلفيات مالية واقتصادية وسياسية رهيبة ، فقد واصل العرب كفاحهم اليائس ، ووقف النفاق البريطانى بين الطرفين ليكرس الانتصارات اليهودية ، حتى إذا ما شعرت الصهيونية بأن بريطانيا لم يعد لها مستقبل فى المنطقة ، وأن الصهيونية العالمية لم تعد تستظل بالراية الانجليزية ولا تحتاج إليها ، قام الزعماء اليهود يدعون إلى مقاومة الانجليز بنفس الصرامة التى يقاومون بها العرب . ووجد دهاة البريطانيين أن الفرصة قد سنحت لخلق وضع عسكرى وسياسى قلق فى هذه المنطقة ، لا يسمح لمستعمر آخر ، ولا لصاحب مطامع فى هذه الجهات أن ينعم بالأمن والاستقرار ، فقرروا الانسحاب من فلسطين ، ووافقوا على أن يتركوا هذه البلاد فى رعاية الأمم المتحدة .

وهذا هو الباعث المباشر لصدور قرار التقسيم من الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ . وما أن أُذيع القرار حتى بدأت الدول العربية تعارض فيه بطريقة لا نظام فيها ولا حرص ولا استعداد .

وراح اليهود كدأبهم القديم يصرخون ويولولون ، ويعلنون فى العالم أجمع أنهم معرضون للإبادة فى القدس وتل أبيب والكرمل وكل مكان لجأوا إليه من فلسطين ، بأسلحة الجموع العربية السائبة غير المنظمة ولا المسئولة ، وبالطبع كانت هذه فرية من صنع اليهود ، دبروا من أجل رواجها وقبولها فى العالم بعض تحرشات مفتعلة ، وحوادث فردية ، طلبوا لها وزمروا ، وأقاموا بها الدنيا وأقعدوها .

ونجح اليهود في أن يجعلوا من مجتمعهم موضع عطف من عالم
يجهل كل مخططهم ، كما نجحوا في أن تتدفق إليهم الأموال
والأسلحة والمؤن . وأن ينفذ إليهم مهاجرون جدد من اليهود الذين
تمرسوا بفنون القتال العسكري الرسمي في جيوش الحلفاء وبأساليب
الاغتيال والنسف والإرهاب في حرب العصابات ضد الهتلرية في أوروبا .

وفي ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ انسحب الانجليز من فلسطين . وتصادف
أن كان هذا اليوم يوم السبت وهو العطلة الإجبارية الدينية لليهود .
ولكن الصهيونية لم تترك الوقت يضيع ، إذ قام دافيد بن جوريون
رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بدعوة الزعماء اليهود للاجتماع
في تل أبيب بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ ليعان أنه ابتداء
من منتصف هذه الليلة بالذات تقوم في فلسطين دولة لليهود اسمها
« إسرائيل » كما تم ترشيح حاييم وايزمان ليكون أول رئيس لهذه
الدولة . وقد تم انتخابه ، ثم احتفلت الصهيونية بتوليته سلطانه
السياسية ، وتلاوته ليمين الولاء للدولة وللأمة اليهودية ، في ٢٧ يناير
سنة ١٩٤٩ وبين هذين التاريخين تتابعت الأحداث، مشيت الجيوش
العربية من العراق والأردن ومصر في اتجاه تل أبيب . ولكن التكتيك
اليهودي كان قد لجأ إلى وسيلة فعالة لعرقلة تحرك هذه الجيوش ،
إذ راح يمارس إرهاباً وحشياً منقطع النظير على الجماهير من عرب
فلسطين ، حتى نشر بينهم الرعب والفرع بما ارتكبه من المجازر
وأعمال النسف والتدمير والإجلاء الجماعي من المدن والقرى الفلسطينية .

كما احتلت القوات المسلحة الاسرائيلية المواقع الاستراتيجية التي كان يشغلها الانجليز . فوجد الجنود العرب أنفسهم يخوضون معركة مرتجلة ، بأسلحة قديمة أو فاسدة في معظم الأحيان ، وتحت قيادات جاهلة أو خائنة متواطئة مع الاستعمار ، لا ترى إلا مصالحها الطبقية وأهدافها في البقاء في الحكم والسيطرة على المزيد من الثروة . وبالرغم من ذلك كله فقد أبلى الجندي العربي في هذه المعارك بلاءً حسناً وحقق ما طلب منه تحقيقه من مهام القتال في أكثر من جبهة . ولعل ذلك نفسه هو الذى أثار مخاوف الزعماء والحكام العرب المتخلفين ، فتضافرت المناورات السياسية من جانب الانجليز الموجودين في كثير من بلدان العالم العربي وهيئة الأمم المتحدة الواقعة تحت تأثير يهودى يتوارى في كواليس السياسة الأمريكية المسيطرة على المجتمع الدولى . وأحلام رومانسية شيوعية واشتراكية خدعت فيها السياسة الروسية في ظل ستالين ، وقادتها بعمد وإصرار حكومة اشتراكية في فرنسا يتزعمها اليهودى « ليون بلوم » بالاشتراك مع مساعدة « جول مولك » وزير الداخلية الفرنسى اليهودى الصهيونى ومندوب فرنسا في معظم المؤتمرات الدولية في ذلك الوقت .

ومن ورائهما شخصيات كثيرة يهودية منها « مارسيل داسوا » النائب الفرنسى صاحب مصانع الطائرات الحربية « مستير » و « ميراج » كما تحركت الدعاية الصحفية والإذاعية في كل أرجاء العالم ، تؤيد الحق اليهودى في فلسطين ، وتشيد بالانتصارات التي تحققها الدولة الجديدة الناشئة ، وتنمق الأوصاف فيما ينتظر من السعادة والأمن والرخاء ، والتقدم السياسى والفكرى والعلمى والصناعى في المنطقة كلها بفضل هذه الصفوة المختارة .

ونحن لا ننسى ألقوالا ترددت في صحافة العالم كله ، تصريحات ظلمة غاشمة قبلتها الإنسانية إذ ذاك بدون تمحيص . فالساسة اليهود الفرنسيون يرددون في كل وقت أنّ دولة إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ، فيؤمن المتحدثون الرسميون في روسيا ورومانيا وبولونيا على ذلك ويقف حايم وايزمان ملوحاً بالإمكانات القتالية والسياسية لليهود في العالم فيقول : إنهم قوة تعميرية حضارية هائلة إذا وقف أحد في وجهها فإنها قديرة على أن تكون قوة انتقامية تدميرية هائلة أيضاً . ويردد رئيس وزراء فرنسا الاشتراكي « جى موليه » إبان أزمة قناة السويس وقبيل اشتراكه في العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ قوله : إن هذا الشعب الصغير ، شعب إسرائيل لجدير حقاً بالاعجاب .

ولا يفوتنا في هذا التقرير الملخص السريع أن نشير إلى أن قيام دولة إسرائيل في فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ كان مسنوداً من داخل الأمم العربية في جميع أوطانها بعملاء للصهيونية من بين الاسرائيليين المقيمين في البلاد العربية ، كانت هذه السياسة المتواطئة مع الاستعمار قد استقطبتهم على مدى سنين طويلة يؤيدونها بالمال وبالجاسوسية وبممارسة التأثير على الزعماء والحكام ، بالرشوة حيناً وبالمداينة والتملق والتذلل أحياناً وبالتهديد بتفجير أزمات مالية أو سياسية ، وبوسائل أخرى غير أخلاقية تدور وراء أبواب القصور .

وفي الخلوات الخاصة والمخادع المستورة للسادة والأمراء والكبراء ، من بيدهم الحل والعقد ، وبقيام دولة إسرائيل رسمياً في فلسطين اتخذ

الصراع العربي الإسرائيلي صورة أكثر وضوحاً ، وأصبح للحوادث « منطق » معقول لدى المراقبين السياسيين مهما كانوا أذنباً لليهود ، أو استعماريين متحفزين ، أو إنسانيين مخدوعين بالأكاذيب الإسرائيلية العالية الصوت الواسعة الانتشار ، المسبوكة بحذق وفن ودراسة . كانت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين تجاوز عددهم المليون ماثلة تحت أعين الأمم المتحدة ، والعالم كله مربوطاً في أعناقهم بحبل من مسد . لاسيما بعد أن أنشأت الأمم المتحدة لجنتها الدولية لإغاثة هؤلاء اللاجئين المعروفة باسم « الأونروا » فقد كانت كل تقارير الخبراء الدوليين ، والزوار المتطلعين لمعرفة الحقيقة تنطق بأن هذه الجماهير الضخمة من المشردين المنبوذين كانت وما تزال الضحية الحية الناطقة بجرم التوسع العسكري الإسرائيلي . ومع ذلك فقد حاول اليهود وحلفائهم المغالطة ، فراحوا يتهمون الدول العربية المحيطة بإسرائيل بأنها هي التي جعلت من اللاجئين وصمة جبين الإنسانية ، إذ كان بإمكانها استيعابهم وإيوائهم وتوطينهم وتشغيلهم في أراضيها . وكأنهم يريدون من المنظمة الدولية ومن الرأي العام العالمي ، أن يتوقف باستمرار مسخراً عن طاعة عمياء لتكريس كل عدوان توسعي إسرائيلي وابتلاع ما يتمخض عنه من نتائج .

ولما كان اليهود قد تدرّبوا على مدى ألفين من السنين على المناقشات الشرثارة والفتاوى المستحيلة ، والتفنن في التحليل والتحرّيم على عكس ما وصى به الله وأمرت به أبسط قواعد الأخلاق ، وأحسنوا تنميق هذه الشرثرة في مخلفاتهم الطويلة التي لا تكاد تنتهي ، في

المدراس والتلمرد ، فإنه ليس من العجيب أن يستمروا في مثل هذا النقاس الفارغ المصدع للرغوس في العصر الحديث ، وفي المجتمعات الدولية والأوساط الدبلوماسية حول مشكلة فلسطين ، حتى تأقلمت البشرية في هذه المشكلة وتبلد إحساسها بها ، وأصبح الفصل في أقل جزئياتها يحتاج إلى مراجعة أكداً كبيرة من الوثائق والأوراق والملفات والكتب ، وإثارة ما لا ينتهى من المناقشات الجديدة والاعتراضات الجانبية وهكذا دواليك . فإذا سنحت الفرصة في أثناء ذلك للقوة المسلحة الإسرائيلية وأمكنتها الوثوب على فريسة جديدة من الأراضي العربية انقضت على غرة ، وأضافت إلى الوقائع المريرة السابقة أمراً واقعاً جديداً يطول به النقاش وتحلو حوله الثرثرة ، وتكسب من ورائه الصهيونية سنوات أخرى من الأمن وادعاءات أخرى في الانتصار .

ووقعت الأمم المتحدة برمتها في هذا الشرك ، ووقعت معها الأمم العربية أيضاً وتتابع مسودات جديدة لمشروعات معدلة حول تقسيم فلسطين . والعرب في كل مرة يرفضون التقسيم الجديد ويطلبون العودة إلى ما قبله . في سنة ١٩٤٧ كانوا يتمسكون بالكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ وبعد حرب ١٩٤٨ ، وأمام مشروع تقسيم جديد ، أصروا على تطبيق تقسيم سنة ١٩٤٧ وفي أعقاب العدوان الثلاثي لسنة ١٩٥٦ ألحوا في ضرورة العودة إلى خطوط ١٩٤٨ ، وقبيل الزحف العسكري الاسرائيلي لسنة ١٩٦٧ كانوا ينادون بالالتزام الدقيق لحدود هدنة ١٩٥٦ ، وبعد حرب الأيام الستة في يونيه ١٩٦٧ ما تزال مطالبنا تنحصر في جوهرها ، في ارتداد القوات الإسرائيلية إلى مواقعها قبل اشتعال هذه الحرب .

وكادت المشكلة الأولى والأساسية تذوب في هذا السيل المتدفق من المساومات ، وهى مشكلة وجود دولة إسرائيل ذاتها في المنطقة إذ لم يعد أحد يجد لديه الجرأة في أن يعتقد ، ولو في قرارة نفسه فقط ، بضرورة زوال هذا التنظيم السياسى العسكرى الدخيل البغيض . ويكاد من يفكر في ذلك يخشى من ضحك الناس وسخريتهم وآماتهم له بالتخلف العقلى والغيبوبة عن واقع الأمور . ناسين أن الصهيونى تيودور هرتسل عندما وضع مخططه وسماه دولة اليهود لم تكن لليهود دولة ولم يكن هو يتصور أنه سوف يراها حقيقة واقعة ، ولا كان يتصور ذلك واحد من أعضاء المؤتمر الصهيونى الأول . كما أن انجالترا عندما وعدت بتيسير مقر قومى لليهود في فلسطين في تصريح بلفور ، لم تكن لاهى ولا اليهود يملكون شيئاً في فلسطين . وإنما كانت الصهيونية فكرة تمسك أتباعها بها . وصبروا أجيالاً متعاقبة في سبيل إخراجها إلى حيز الواقع دون يأس أو ملل ، مستغلين جميع الظروف للوصول إلى أهدافهم .

والموقف العربى كان على عكس ذلك تماماً على الرغم من وجود الحق في جانبهم . فقد كان يسرع إليهم الشك ، ويدب فيهم اليأس ، ومع الشك واليأس والخسائر المتكررة يظهر الخلاف والشقاق ، وتبدد ثقة الأخوة بعضهم ببعض .

وذلك هو ما آل إليه الموقف العربى في بعض الظروف العصبية الأخيرة ، حتى لقد تطاول كثير من الزعماء اليهود فراحوا يسخرون منا في كل مناسبة وبغير مناسبة فموشى ديان يعلن في أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ أن إسرائيل كانت منذ قيامها تشعر بضرورة

اعتراف العرب بها ، أما الآن فإن العرب هم الذين يحتاجون إلى أن تعترف بهم إسرائيل ، وهو كلام خطير له مغذى أبعد مجرد النكتة السفهية والسخرية اللاذعة فعدم الاعتراف في عالم السياسة معناه الإهدار الكامل ، والاستباحة التي لا تقف عند شريعة ولا تخشى من قانون ، وهذا هو موقف إسرائيل تماماً من الحدود العربية الآن . وموشى ديان نفسه هو الذي صرح أكثر من مرة عند مناقشته في الرجوع إلى حدود ما قبل يونيه سنة ١٩٦٧ بأن الفكر السياسي والعسكري العربي متخلف عن الواقع بمقدار حرب بين العرب واليهود ، وأنه في كل مرة نجد العرب يطالبون اليهود بالعودة إلى الحدود التي كانت قبل آخر صراع ثم يضيف إلى ذلك ضاحكاً : إنه على هذا القياس ليس من مصلحة اليهود أن تتوقف حروبهم مع العرب فربما تكون الجولة القادمة سبباً في رضاهم بما يرفضونه الآن . وهو أيضاً كلام خطير على ما فيه من سوقية وعجرفة ، إذ أنه يجعل من التوسع العسكري الإسرائيلي في الأرض العربية سياسة ضرورية لإسرائيل ، تأتيها بمكاسب لا تستطيع تحقيقها بغير ذلك .

كل هذا لأن الاسرائيلي الآن مطمئن تماماً إلى أن العرب بعد عشرين عاماً فقط من قيام إسرائيل ، وهي مدة لا تكاد تذكر في عمر السياسة ، ولا في حياة الدول والشعوب ، قد نسوا تماماً الحل الأوحد والأول والأمثل للعرب ، ولقضية الحرية في العالم ، وللسلام بين البشر وهو زوال الصهيونية من الوجود .

نظرة على ما قبل الصهيونية

يطول بنا القول لو أننا حاولنا أن نتتبع كل سوابق اليهود مع الطغيان والاستعمار عبر التاريخ ، كما أن ذلك يخرج بنا عن حدود الموضوع الذى التزمنا ببحثه ، وهو ارتكاز الاستعمار فى بلاد المسلمين على اليهود . لكن لكى نتصور النفسية اليهودية فى معاشتها للناس لا بد أن نذكر أن ما تعرض له اليهود من نقمة الله ، ونقمة أنبيائهم عليهم ، وما تبع ذلك من تعرضهم للدذلة والتشريد ، قد بلور فى قلوبهم عقدة الوضاعة ، بحيث تحولوا إلى أفاية مظلومة من ناحية ، وحاقدة من ناحية أخرى ، يزيد حقدها ، فيزيد عليها الظلم فتزيد انكماشاً وحقدًا ، وتعيش فى داخل هذه الحلقة المفرغة قرونًا وقرونًا من السنين . وقد أوحى لها هذا الحقد بالإسراع إلى معاونة الطغاة ، والتصرف بأمرهم فىمن يريدون إيذائه من الأمم . تعاونوا مع قهبيز فى غزوه لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد وأصبحوا ضمن كلاب الحراسة الفارسية فى وادى النيل . وسمح لهم الامبراطور الفارسى بمصاحبة حامياته العسكرية وتموينها والتعامل معها . ووصلوا فى توغلا م فى الأرض المصرية إلى أقصى الجنوب فى أسوان ، حيث تدل وثائقهم المكتشفة هناك والمكتوبة بلغة آرامية تقترب من لغة التلمود ، على معيشتهم متجاورين لجيش الاحتلال الايرانى ، يقومون بتموينه ، والعمل فيه كصناع وعمال ، والتعامل معه بتجارة الخمر وتوريد النساء والولدان . وتعاونوا بعد ذلك مع الاسكندر الأكبر ، والبطالسة والسلوقيين والرومان ، كل ذلك مقابل منافع معينة يظفرون بها على

حساب الأمم المحكومة ولكن تعارضت المصالح إبان ظهور السيد المسيح عليه السلام ، وعلى أثر الدعوات الإصلاحية المتكررة التي قامت بين اليهود . فتم تشتيتهم في الأرض سنة ٧٠ ميلادية ثم جاء الامبراطور هدریان سنة ١٣٥ فأكمل استأصالهم ، وقضى على أحلامهم في السيطرة على العالم . واضطهدتهم أوروبا المسيحية في العصور الوسطى أشد الاضطهاد بينما أحسن الإسلام إليهم وجعلهم من أهل ذمته ، ودخلوا بنص القرآن الكريم بين أهل الكتاب .

كانوا يعيشون في ظل العرب والمسلمين في إيران والعراق والشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس في رخاء وازدهار لم يعرفوه قطعاً منذ أيام نبيهم وملكهم سليمان بن داود فظهر منهم علماء كبار ، وازدهرت جامعاتهم ، ومراكزهم العلمية ، من أصفهان ، والموصل ، وبغداد ، ودمشق ، وطبرية ، والقدس ، والقاهرة ، والفيوم ، والاسكندرية ، والقيروان ، وفارس ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وسرقسطة ، وعرفت اللغة العبرية نفسها في ذلك الوقت عصرًا ذهبياً لم تعرفه من قبل .

فقد تعلم علماء اليهود من أئمة العرب مناهج البحث في اللغة والأدب والشريعة والعميدة ، وطبقوا ذلك كله على تراثهم فظهرت فيهم المعاجم وكتب النحو والفقه والتوحيد والرحلات الجغرافية والتفاسير المطولة للتوراة والتلمود ، كما انتشرت دواوين شعرائهم بغزارة ينظمونها على موازين الشعر العربي التي استنبطها الخليل بن أحمد الاسدي البصرى الفراهيدي . واشتغلوا في الدول العربية والإسلامية بأرفع الأعمال فكان منهم القادة والمحتسبون وجباة الضرائب والمهندسون والأطباء والفلكيون وكبار الكتاب والمستشارون والوزراء ومع ذلك فإن آفة

الحقد القديم كانت تنتابهم كرة بعد أخرى فلا يتورع سفهاؤهم عن الكيد للإسلام ، وإدخال الكثير من الخرافات فيه ، مما أصبح يشكل داءً دفيناً في ثقافتنا العربية الإسلامية ، كثرت شكوى علمائنا منه قديماً وحديثاً تحت اسم (الاسرائيليات) .

ولم يقف الأمر بهم عند هذا الحد ، بل ظهرت بينهم في ظل الإسلام حركات كثيرة مريبة لعل أشهرها ما قام به الداعية اليهودي أبو عيسى الأصفهاني ، واسمه عوباديا اسحق بن يعقوب . الذي عاش في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وأراد أن يكتل أبناء طائفته حول دعوة جديدة تهدف إلى الحصول على كيان قوى لهم ، فادعى أنه المسيح المنتظر ، وبعد موته حمل دعوته تلميذه (يودجان) الذي سماه أتباعه (الراعي) وهو لقب وصل محرفاً إلى علماء المسلمين ، فسماه الشيهرستاني (الداعي) وإليه تنسب طائفة من اليهود اسمهم اليهود الجانية . وكذلك في أيام الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز ظهر في سوريا يهودي اسمه « سيرينوس » ادعى هو أيضاً أنه المسيح .

وكان الخليفة قد لاحظ إساءة اليهود استعمال الحرية التي منحها لهم الإسلام فبدأ يشدد الرقابة عليهم ويعاقبهم بحزم إذا هم انحرفوا . فقام هذا اليهودي يدعو إلى مجتمع فوضوي يقول بالحرية المطلقة ، وإلغاء السلطة الحاكمة وتعطيل شرائع التلمود وإبطال الصلاة وإباحة النساء بدون زواج ورفع الحظر عن المحرمات في الطعام والشراب . . إلخ ، واستمرت دعوته إلى الخليفة التالي يزيد بن عبد الملك بن مروان

الذى ألقى القبض عليه فادعى أنه لم يكن جاداً ، وأنه كان يريد الضحك فقط . وظهر من أمثاله آخرون فى قرطبة سنة ١١١٧ ميلادية ، وفاس سنة ١١٢٧ ميلادية ، وفى سنة ١١٣٥ ميلادية ومع اشتداد وطأة الحروب الصليبية على المسلمين قام فى كردستان يهودى خطير هو داود الرائى المولود فى مدينة آمد بأقليم كردستان . وقد بدا له حوالى سنة ١١٦٣ ، وكان قد أتقن العلوم اليهودية ومعها علوم السحر والتنجيم ، أن يدعى أنه المسيح المنتظر ، وقام بحركة صهيونية تقوم بالاستيلاء على فلسطين .

وطرد العرب منها وإعلان دولة إسرائيلية فيها . وكان له مخطط جهنمى يعتمد على تشجيع عوامل الضعف فى العالم الإسلامى بالجاسوسية والحرب ونشر الإشاعات والخرافات وتشجيع الإلحاد والزندقة والانحلال الخلقى ، وإثارة الأفليات الدينية والعنصرية ضد وحدة العالم العربى والإسلامى وقد تناولت مبادئه الهدامة بلاد فارس والعراق ومصر ، وسوريا ، متعاوناً فى ذلك مع المستعمرين الصليبيين حتى أنه نجح فى إثارة القلاقل فى الدولة السلجوقية وفى الخلافة العباسية ، ثم إنه انتقل من هذه المرحلة إلى مرحلة الهجوم العسكرى فجند جيشاً من المتطوعين اليهود فى إقليم أذربيجان ، واستمر صراعه العسكرى حتى قضت عليه الجيوش الإسلامية فى شمال العراق .

ومن هؤلاء الفوضويين المسيح الكذاب داود الرؤبينى المولود حوالى سنة ١٤٩٠ ميلادية فى خيبر بالقرب من المدينة المنورة . وقد بدأ دعوته بأنه المطالب الشرعى بعرش اليهود فى خيبر التى احتهاها الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت أول فكرة تنبثق فى رأسه هى أن يتعاون مع

المستعمرين الأوروبيين ، ومن يتوسم فيهم أنهم أعداء للعرب والمسلمين فأرسل إلى البابا في روما وإلى ملوك أوروبا يطالب منهم أن يمدوه بالأموال والأسلحة لكي يحارب العرب وعلا شأنه جداً فاستقبله البابا (كليمنت السابع) في الفاتيكان سنة ١٥٢٤ باحتفال ضخم وفي السنة التالية استقبال استقبالا رسمياً في قصر ملك البرتغال . ولكن كان بعض اليهود الذين دخلوا في المسيحية في أسبانيا والبرتغال ، قد بدأوا من فرط تحمسهم لهذا المسيح الكذاب يعودون إلى اليهودية وحدث أن عاد إليها أحد وجهاء اليهود المنتصرين واسمه « ديجو بيريز » وسمى نفسه « سالمون مولخو » ، فكره المسيحيون هذا الداعية اليهودي ، وقرروا إحراق مولخو علناً بتهمة الكفر ، والقبض على داود الرؤيوني الذي سقط في أيديهم في أسبانيا وسجن وقتل مسموماً في السجن . كل هذه صور من الأحقاد اليهودية التي كانت تظهر كلما سنحت الفرصة في داخل المجتمع الإسلامي الكريم المتسامح ، الذي وهب لليهود الأمن والعلم والحرية .

وإذا كانت الفتن الدينية والدنائس السياسية من الأساليب التي اتبعتها اليهود أفراداً وجماعات في سبيل إضعاف العالم الإسلامي والنيل منه بكافة الطرق ، بهدف الاستيلاء على فلسطين ، وجعلها منطلقاً لحركة استعمارية واسعة النطاق ، ميدانها الشرق العربي والإسلامي كله فقد كانت وسيلة المال والتسلل به إلى القصور ، وإلى الحكام وولاة الأمر ، هو وما يصاحبه من مبادل وموبقات ، من أنجح الوسائل التي حاول بها القوم ضععة الكيان العربي والإسلامي

ومن أهم الحركات التي اصطنعت هذا الأسلوب حركة اليهودى يوسف النسئ ، في قلب الخلافة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادى . كانت أسرة هذا الرجل من الأسر اليهودية الثرية فى الأندلس على أيام العرب فى العصور الوسطى . وبعد زوال الإسلام من أسبانيا ، بدأت محاكم التفتيش المسيحية الكاثوليكية تشدد النكير على من بقى من العرب ومن يواليهم من اليهود فى هذه الأرض .

وتحت ضغط هذا الاضطهاد الذى كان يفرض على تلك الأقلية الباقية إما التنصر وإما القتل ، لجأ كثير منهم إلى الفرار . وراحت أسر يهودية كثيرة بأكملها تهرب إلى هامبورج ، وأمستردام ، وفرانكفورت ، ولندن ، وغيرها من بلاد غرب أوروبا ، حيث وضعت هناك نواة لطائفة من اليهود غريبة على تلك البلاد هم « السفرديم » أو اليهود الأسبان المتأثرون بالفكر العربى والإسلامى ، يزاحمون طائفة أخرى أكثر انتشاراً فى هذه الأصقاع هم « الاشكنازيم » أو اليهود الألمان أما أكثر أولئك السفرديم فإنهم ذهبوا إلى إيطاليا وتركيا وشمال إفريقيا وما وراءها من بلاد الإسلام فى مصر وسوريا والعراق وإيران .

وكان من أسلاف عائلة النسئ رجل واسع الثراء اسمه فرانسيسكو منديس يعيش فى لشبونة بالبرتغال ، وترك بعد وفاته أرملة اسمها « بياتريس دى لونا بنفنيست ، أو جراسيا منديس » ، كما اشتهرت فيما بعد . وقد صفت أعمال زوجها وهربت بكل ثروتها إلى البندقية ، أخذت معها ابن اختها يوسف النسئ .

كان هذا الفتى على صلة صداقة مع « موشيه هامون » طبيب السلطان العثماني بالقسطنطينية ، الذى كان أبوه يوسف هامون قد هرب من محاكم التفتيش الأسبانية عام ١٤٩٢ ، حيث قربه بايزيد الثانى وسليم الأول وجعله طبيباً لقصر الخلافة التركية . ثم خلفه ابنه موشيه طبيباً خاصاً للسلطان سليمان الثانى « ١٥٢٠ - ١٥٦٦ » . وكان له نفوذ واسع فى الأوساط الرسمية فى الدولة العثمانية .

انتقل يوسف النسئ وخالته جراسيا من لشبونة إلى البندقية كما قلنا ، ثم منها إلى « فرارى » وأخيراً استقرا فى القسطنطينية ، وأصبحا أكبر وأعنى تجار الشرق الإسلامى ، بل حوض البحر الأبيض المتوسط وما يزال فى استانبول معبد يهودى كبير يحمل إلى يومنا هذا اسم جراسيا منديس . وقد تزوج يوسف بابنة خالته « رينا » وبدأت الأسرة ترسم حول السلطان سليمان الثانى ، وبمساعدة طبيبه الخاص اليهودى موشيه هامون ، مخططاً صهيونياً قبل ظهور تيودور هرتزل بأكثر من ثلاثة قرون .

كانت هذه الأسرة الغنية تسارع إلى تدعيم مالية الباب العالى كلما أحست بأنّه فى أزمة ، وكان السلطان يرسل يوسف النسئ سفيراً من قبله إلى ملوك أوروبا ، بل إنه ألزم فرنسا بتعويض صاحبنا اليهودى ، هذا هو وأسرته على الأضرار المالية التى لحقتهم قبل التجائهم إلى تركيا .

وأصدر السلطان سليم الثانى بعد استيلائه على مصر قراراً بمصادرة ثلث شحنة أية سفينة فرنسية تدخل الموانئ المصرية ، وتسليم حصياتها لليهودى يوسف النسئ .

واستغل النسيء هذا العطف السلطاني فطلب إعطائه كل إقليم طبرية
بفلسطين ، ليكون ملجأً قومياً لليهود ، واستجاب السلطان له ، كما
أعطاه مجموعة من جزر الأرخبيل اليوناني منها جزيرة « نيكسوس »
وأنعم عليه بلقب « أمير نيكسوس » . وكان صاحبنا يصدر المراسيم
باسمه . ويبدوها بهذه الصيغة : « نحن يوسف النسيء ، دوق بحر
إيجة ، ومتصرف أندروس ، نأمر بما هو آت » . وأعرب شيء أن هذا
الرجل الخطير حصل على فرمان من الباب العالي يحرم على المسلمين
الإقامة في الجزر التركية التي كان يحكمها . وأعرب من ذلك أنه
أحضر من أسبانيا مساعداً له ، وعينه « قائمقام » في مملكته الصغيرة ،
وكان مسيحياً اسمه « كورونيلو » ، ولكن السر الذي لم يكن يعرفه
إلا النسيء هو أن كورونيلو من سلالة يهودى أسباني مشهور هو إبراهيم
سنيو .

وفي هذه الأثناء كان يوسف النسيء يقيم في قصر فاخر بضواحي
استانبول هو قصر « البلندير » . وبعثاً حاول الوزير محمد باشا الصقلي
أن يثنى السلطان عن حبه ليوسف النسيء وتحمسه له .

بعد ذلك بقليل احتل الأتراك جزيرة قبرص : نيقوسيا أولاً
ثم فاما جوستا سنة ١٥٧١ ، وكان السلطان في أثناء المعارك قد وعد
النسيء بتعيينه حاكماً عاماً لهذه الجزيرة بلقب باشا أو خديوى .

إزاء ذلك لجأ محمد باشا الصقلي إلى الأساليب اليهودية نفسها
ليحمي نفسه ويحمي الدولة من ازدياد نفوذ النسيء . فاستعان بيهودى
اسمه سالمون اشكنازى ، وكان قبل مجيئه إلى تركيا طبيباً خاصاً لملك

بولونيا سجسموند أوغسطس ، ولكن اليهود كانوا أشد خبثاً من أن تتم عليهم حيلة الوزير التركي ، فاتفق يوسف النسي وسولومون اشكنازي ، وأصبح يهود الدولة العثمانية في عصر ذهبي قلما جاد لهم الدهر بمثله ، ينتشر نفوذهم على كل شيء في كل نواحي الخلافة الإسلامية التركية . ومما زاد الأمر خطورة وجود يهودية ثرية هي « استير كييرا » في استانبول ، وتمتعها بثقة حريم القصر ، حتى أصبحت وصيفة للسلطانة نفسها .

وفي طبرية أراد يوسف النسي أن ينشئ وطناً قومياً يهودياً ، فأعاد بناء المدينة ، وأكثر حولها من المشروعات العمرانية والزراعية ، وغرس الآلاف المؤلفة من أشجار التوت ، وشجع أعداداً ضخمة جداً من يهود أوروبا على الهجرة إلى فلسطين والاشتغال بإنتاج الحرير الطبيعي وتصنيعه . ولولا إرادة الله وحدها لثم للنسي ما أراد . فقد تفشت الأوبئة كالمalaria والطاعون بين هؤلاء اليهود فقصت عليهم وعلى أول مشروع استعمارى يهودى لفلسطين .

وقد اقترنت حركة النسي بجهود ملحوظة في الدعاية ، وإثارة النزعات القومية العنصرية بين يهود تركيا ، ومن أقطاب هذه الحركة الطبيب صمويل شولام ، والكاتب اسحق عكريش ، وقد نشرا مؤلفات هامة في تاريخ اليهود لمؤلفين من المتعصبين من بنى قومهم ، كانوا لا يجرعون على نشرها في أوروبا .

ومع ذلك فنحن مع يوسف النسي نسائر حركة ، خطيرة جداً بدون شك ، ولكنها تتسم بالجدية والتخطيط السياسى والاقتصادى

المعقول . وقد أتحنفنا المجتمع اليهودى المتآمر دائماً وبلا جريرة على العرب والمسلمين ، بلون آخر من خبثاء اليهود ممثل في « شبتاي صبي » وهو اللون الهزلى الذى يتحدى العقل والمنطق والدين والقيم كلها .

وهو من مواليد أزميز ، في صيف ١٦٢٦ ، وأبوه مردخاى من سلالة يهودية اشكنازية (ألمانية) مهاجرة إلى أزميز ، بعد فترة قضتها في شبه جزيرة المورة باليونان .

كان أبوه يتجر في البيض والطيور ، ثم صار وكيلا لشركة تجارية بريطانية أثرى من ورائها ثراءً ضخماً . وكان ابنه شبتاي هذا يبدو موفور الذكاء دخل في سن السادسة مدرسة يهودية لتعليم التوراة والتلمود ، وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى كان يتعاطى التدريس واستهوته دراسة « القبالة » وهى علم التأويلات الباطنية عند اليهود ، فأمعن في البحث فيها .

وفي سن الثامنة عشرة حصل على إجازة للتدريس وتخريج الطلاب ، وكان حسن الهيئة طلى الحديث طلق اللسان ، وقد اتسعت ثروة أبيه جداً أثناء النزاع المسلح بين تركيا وإمارة البندقية حول السيطرة على جزيرة كريت . وخطب الأب لابنه بنتاً لأحد كبار اليهود الأغنياء ، وكانت فيما يقال جميلة جداً ، ولكنه لم يقترب منها وتركها ، وتزوج من فتاة أخرى ، ثم طلقها أيضاً دون أن يدخل بها . وكان هذا الفتى بحسب بانه قدير على أن يعمل عملاً سياسياً ودينياً ضخماً جداً لبني إسرائيل ، فراح يحسب الحسابات الفلكية حسب أسرار علم الباطن « القبالة » ثم أعان أنه هو المسيح المنتظر وأن سنة الخلاص لليهود

هى سنة ١٦٤٧ ، وافتتن به تلاميذه فاتبعوه ولكن رؤساء الدين اليهودى رفضوا دعوته وكفروه هو ومن آمن به . وأحس بأن مدينة أزمير بدأت تضيق فى وجهه فهرب منها بجرأاً إلى القسطنطينية وكان السلطان وحكومته بعيدين عنها فى مدينة أدرنة . فانتهز « شبتاى » صى « الفرصة وراح يبشر اليهود بالخلاص ، وانضم إليه يهودى آخر هو أبراهام باكىتى الذى بذل جهداً كبيراً فى نشر دعوته .

والظاهر أن يهود أزمير كانوا قد كتبوا فى أمره إلى القسطنطينية ، فخاف وهرب منها هو وأتباعه متجهين إلى مدينة سالونيك التى كانت مقراً لجالية يهودية كبيرة ومركزاً لدراسة « القبالة » أو علم الباطن . وطاب له ولأتباعه المقام لمدة ثمانى سنين . وذات ليلة أعلن على الملأ أنه المسيح المنتظر . فثار عليه شيوخ اليهود واستصدروا من المحكمة الملية قراراً بكفره وامتحاقه للقتل . ففر سنة ١٦٥٨ ، وبقى هائماً على وجهه سنة كاملة ذهب فيها إلى أثينا ومنها هرب إلى أزمير ثم عاد إلى القسطنطينية ، وهو فى أثناء ذلك يوهم الناس أنه يحسب النجوم والطوابع ، ويرى أن وقت خلاص اليهود قد آن ، وأن الدولة اليهودية ستقوم فى فلسطين . ولكن المتعقلين من اليهود كانوا يعارضونه بشدة ، حتى هرب إلى بلدة أزمير ، فأقام بها ثلاث سنين ملتزماً الحيطنة التامة والسرية فى اتصالاته .

وكانت بدعته التى ابتدعها تشبه الوباء ، فسرعان ما انتشرت أصداؤها لدى المسلمين والمسيحيين . فشاع بين المسلمين اقتراب ظهور المهدي المنتظر ،

كما قال المسيحيون بأن سنة ١٦٦٦ هي موعد عودة المسيح إلى الأرض ، بل قال بعض المسيحيين بأنها سنة خلاص اليهود أيضاً . وجددت هذه الإشاعات نشاط شبثاى صبي فاتجه سنة ١٦٦٢ أو ١٦٦٣ من أزمير إلى القدس ، وتركها إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث تعرف بيهودى من وجهاء المجتمع هو رفائيل يوسف جلبي ، مدير خزانة الدولة ، ورئيس الطائفة اليهودية بمصر . فأمن به وأكرمه وأمده بالمال الكثير . فقرر أن يقوم برحلة أخرى إلى القدس ماراً بغزة والخليل . وكانت أحوال اليهود في فلسطين قد ساءت جداً . فانتهز صاحبنا الفرصة وسار فيهم بشيراً ، فكثرت أتباعه . وأظهر هو الزهد والعبادة ، واهتم بتدريس علم الباطن ، بل كان يأخذ بعض ضعاف العقول إلى المقابر في ظلام الليل ، ويمارس عليهم تأثيراً نفسانياً بحيث يؤكدون أنهم سمعوا أصواتاً تهتف من القبور وتصيح « شبثاى صبي هو المسيح » . وفي هذه الفترة اتخذ له بطانة من الأعوان كان أقربها إليه يهودى أفاق معروف بالإجرام اسمه صموئيل فريمو .

وحدث في ذلك الوقت أن القائمقام (والى فلسطين) فرض إتاوة باهظة على اليهود . ففكر شبثاى صبي في أن يسوى لهم المشكلة بمعونة مالية من صديقه اليهودى المصرى رفائيل يوسف جلبي . وفعلا ترك القدس وعاد إلى القاهرة .

وتصادف في نفس هذه الفترة أن كانت في أوروبا فتاة يهودية اسمها سارة ، هربت من بولونيا إلى أمستردام ، وفكرت في أن تنزعم حركة بين قومها فراحت تبشر بقرب قيام المسيح اليهودى ، الذى يعيد

ملك بنى إسرائيل في فلسطين . وكانت سارة على جانب كبير من الجمال فكثر أهل الريبة والفسوق بين المؤمنين بها . وأخذت تطوف أوروبا حتى وصلت إلى مدينة ليفورنو الإيطالية . وما أن سمع بها شبتاي وهو في القاهرة حتى أرسل يخطبها^(١) .

أما رفائيل يوسف جلبي فإنه أعطى صاحبنا المال اللازم لمساعدة يهود القدس في دفع الإتاوة المفروضة عليهم . وفي الطريق مر بمدينة غزة ، والتقى بيهودى آخر من أصل اشكنازى (ألمانى) ، اسمه « ناتان بنيامين هاليثى » الذى يعرف في تاريخ هذه الحركة باسم ناتان الغزاوى . فاتخذة شبتاي من صحابته المقربين ، وأعلن أنه نبي في إسرائيل ، واتفق معه على تزيف وثيقة تشهد بأن « شبتاي صبي » هو المسيح المنتظر . فأحضرا قطعة قديمة جداً من رق الغزال ، وأزالا الكتابة التى عليها ثم كتباً معاً نصاً يثبت ما أراد ، وأظهرا الصحيفة للناس . ثم دخل شبتاي القدس في حفل عظيم في أخرى سنة ١٦٦٤ ، فأعلن بنفسه أنه المسيح ، وأنه المتصرف في العالم كله .

وثار رجال الدين اليهودى ضده ، واجتمع الموجودون منهم في القدس وهاجموه هو وتابعه ناتان الغزاوى حتى طردوهما . ولكن بمجرد وصول ناتان إلى غزة بعث بمنشور لكل شيعته يطلب منهم أن يبشروا في كل مكان بأن شبتاي صبي - وكان مختفياً إذ ذاك - ، سيظهر للناس . وكان أول ظهوره في أزميز ، في عيد رأس السنة اليهودية الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٦٦٥ فسارت المواكب من أتباعه تهلل وتنفخ في الأبواق ، فاشتد

(١) الدكتور حسن غاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى - القاهرة ١٩٧١ - ١٤١ ص ١٥٠

غضب رؤساء اليهود ، وأعانوا فتوى شرعية بإهدار دمه ، ولكن لم يجرؤ أحد على المساس به لكثرة أتباعه . وتشجع هذا المسيح الكذاب فأعلن أن غضب الله على اليهود قد ارتفع ببعثته ، وأن اسمه الأعظم الذى كان محرماً عليهم النطق به بسبب تدنيهم له منذ ما قبل السبي البابلي ، قد أصبح مباحاً الآن ، لأن المسيح والملك ، الذى سيجلس على عرش اليهود فى فلسطين ، ويخلصهم من غضب الله ومن التشرد فى الأرض ، قد جاء .

وفى يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٦٦٥ ، وكان فى أوج مجده ، استدعى للمثول أمام قاضى المسلمين . فأشاع بين أتباعه أنه سيذهب ليقم له الدليل على صحة دعواه بعمل بعض الخوارق والمعجزات . وانتشرت الشائعات بذلك ، وتعنى الأطفال بكراماته الخيالية . واتسع نطاق هذه الفتنة التى يقال أن صاحبنا كان أثناءها يشتري سكوت السلطان بالرشوة .

ومع ذلك فقد وصلت أخبارها إلى الوزير التركى « أحمد باشا كوبرلى » فى القسطنطينية ، ولما أرسل فى طلبه على يد قاضى أزميز ، قال له شبتاي : إنه سيقم الدليل أمام الوزير على صحة نبوته . وغضب كوبرلى باشا ، فأرسل إلى قائم مقام أزميز أمراً إدارياً بالقبض على هذا الدجال وإرساله إلى العاصمة فى الحديد وتحت الحراسة .

وتم ترحيله بالبحر من أزميز يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٦٦٥ واستمرت الرحلة بسبب عواصف الشتاء إلى ٤ فبراير سنة ١٦٦٦ ، ثم أُصيبت السفينة بعطل قرب بوغاز الدردنيل ، فأنزل ركابها إلى البر ، وأقيمت

حراسة مشددة على شبتاي صبي ، الذي استمرت رحلته في عربية حتى وصل إلى قرية قريبة من القسطنطينية تدعى « كوشك شكمجى » . ووصل خبره إلى يهود العاصمة التركية فخرجوا لاستقباله ، وعأوده الأمل فى الاستمرار فى ادعاء النبوة . ولكن أحد الضباط الأتراك الموكلين بحراسته ما كاد يسمع منه ذلك حتى صفعه على وجهه ، فحاول أن يستمر فى تدجيله وأدار له خده الآخر ليصفعه أيضاً . وعندما مثل أمام كوبرلى باشا أنكرك ، وزعم أنه مجرد رجل دين يهودى من القدس ، يطوف بالبلاد ليجمع الصدقات . فلم يأخذ الوزير بأقواله ووضع فى السجن . ثم نقل من سجن إلى سجن خشية أن يحاول المؤمنون به إخراجه بالقوة أو بالحيلة ، حتى انتهى إلى قلعة حصينة على الدردنيل اسمها « إقليد البحر » ويسمىها أتباعه اليوم « إقاييد العز » ويقدمونها .

وبعد اتصالات مختلفة أحضره حاكم أدرنه للمشول أمام السلطان محمد الرابع يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٦٦٦ فأعلن أنه يريد الدخول فى الإسلام ووافق السلطان وحاشيته ، وأعلن شبتاي صبي دخوله فى دين محمد صلى الله عليه وسلم وأصبح اسمه محمد أفندى ولقبه « قافوجى باشى إيطراق » ومعناها خادم الأعتاب أما زوجته سارة ، التى كانت قد حضرت إليه من إيطاليا وهو بمصر وتزوجها فى مظاهر هائلة من البذخ ، فإنه أعلن أنها أسلمت أيضاً ، وأصبح اسمها السيدة فاطمة أو بالتركية « فاطمة قادن » .

وبالرغم من إسلامه واتقانه للعربية والتركية ودراسته للقرآن وتفسيره على يد مفتى الأتراك ، فإنه لم يقطع الأمل فى قيادة حركة

جديدة بين اليهود ، وقد كتب لأتباعه بعد إسلامه بتسعة أيام فقط يقول : لقد ألحقوني الآن بسلافة إسماعيل (يعنى العرب والمسلمين) ومع ذلك فأنا أخرجكم محمد قافوجى باشى بإطراق . وكان كلما قابل بعض أتباعه القدماء أنكر الإسلام ، وأفهمهم أنه مجرد ستار يحتمى به ويتخفى وراءه ، فإذا التقى بالأتراك راح يتهم اليهود بالسخرية من الإسلام والدس على المسلمين ، محاولا بذلك استمرار الفتنة فى أدرنة والقسطنطينية . وبعد سنوات أحس الأتراك بخطورته فنفوه إلى ألبانيا وحددوا إقامته فى قرية « ألباسان » وهى موعلة فى داخل البلاد وجميع سكانها من الأرناؤوط ، ويصعب على اليهود الاقتراب منها . وفيها عاش يتصل بأتباعه بالرسائل وال مندوبين إلى أن مات بالكوليرا هناك فى ٣٠ سبتمبر ١٦٧٥ ، ودفن فى مقابر المسلمين الأتراك بهذه القرية .

وأتباع هذا المسيح الكذاب يسمون « دومه » ، ويكتبها بعض المؤرخين « دومنه » . ويظهر أن التسمية كانت فى الأصل تعنى الفرقة ذات الأصلين : اليهودى والمسلم ، وأتباعها يسمون أنفسهم المؤمنين ، وعددهم قليل لا يتجاوز بضعة آلاف ، كلهم متركزون فى تركيا ، وأهم جالية هامة فى سالونيك .

إلى جانب هذه الشخصيات اليهودية الخطيرة ، جادة كانت أم هازلة ، ظهرت فى ميدان التآمر الاستعماري اليهودى على العالم العربى والإسلامى نماذج بشرية أخرى ، من النوع المريض ، الذى استغلته

المطامع اليهودية التي تستغل كل شيء ، فاستنبتت من ضعف نفسه هو قوة لها ، ومن هؤلاء الأمريكي « وارد كريسون » المولود في فيلادلفيا سنة ١٧٩٨ ومات في القدس في ١١/٦/١٦٨٠

كان ينتمى إلى الطائفة المسيحية البروتستنتية المعروفة باسم « الكويكرز » ، وفي سنة ١٨٤٠ اتصل بالحاخام اليهودي الأمريكي اسحق ليسر ، وتلقى منه تعاليم اليهودية ، وراح يكتب مقالات في صالح اليهود في مجلة كان يصدرها الحاخام ليسر في فيلادلفيا باسم « أوكسيدنت » أى الغرب .

وعلى أثر ذلك حدث من الحكمة الأمريكية أمر مريب . ففي سنة ١٨٤٤ عينت هذا المواطن المتعصب لليهود قنصلاً عاماً للولايات المتحدة في فلسطين وتم افتتاح القنصلية فعلاً في القدس ، بالرغم من أن السفير الأمريكي في استانبول الذي كانت هذه القنصلية تابعة له لم يعلم شيئاً عن هذا التعيين . وقد كتب إلى حكومته محتجاً على هذا التجاهل التام له ولسلطاته القانونية المشروعة .

وفي سنة ١٨٤٨ تقدم وارد كريسون إلى حاخامباشي القدس إبراهيم حاي جوجن بطلب رسمي بالدخول في الديانة اليهودية . وتم له ذلك وأصبح اسمه الجديد ميخائيل كريسون بوغز إسرائيل .

وفي نفس السنة عاد إلى فيلادلفيا ، فوجد زوجته وجميع أسرته قد أقاموا دعوى ضده في المحكمة يتهمونه فيها بالجنون ، ويطالبون بإبطال جميع الإجراءات وإلغاء جميع القرارات والوثائق الخاصة بتحويله . وحولت القضية إلى المحكمة العليا ، ووكل الطرفان عنهما نخبة من

كبار المحامين ، واستمع القضاة إلى أكثر من مائة شاهد . وأخيراً أصدرت هذه المحكمة حكمها بأنه مالك لكل قواه العقلية ، وحر في تصرفاته ، ونشرت مجلة « أوكسيدنت » مرافعة الدفاع كريسون ، التي ألقاها أمام المحكمة المحامي هوارشيو هوفل .

كان كريسون طيلة تلك الفترة التي قضاها في فيلادلفيا ، يدعو إلى استعمار يهودى لفلسطين . وكان يرى أن نقطة البدء في ذلك هي إحضار مهاجرين من اليهود ، وإسكانهم في منطقة النقب الشمالى والعمل على تمليكهم وادى الرفائيم إلى الجنوب الغربى من القدس وبيت لحم ، واستعان على ذلك بأموال يهودية أمريكية .

وفي القدس تزوج بامرأة يهودية شرقية ، وارتدى قفطان اليهود الشرقيين وظل خادماً مطيعاً لساداته اليهود حتى مات سنة ١٨٦٠ ، ودفن في سفح جبل الزيتون ، شرق القدس .

وإلى جانب مقالاته في مجلة أوكسيدنت ، نشر مقالات أخرى طبعت على حدة مساهمة منه في الدعاية لعودة اليهود إلى فلسطين ، أهمها مقال عن النبيين موسى والياهو ، ومقال آخر بعنوان « إسرائيل شجرة الزيتون الطيبة » ، وهذان المقالان نشرتا في لندن عام ١٨٤٤

ولسنا نريد أن نلقى القول جزافاً ، ولكننا نلاحظ أن هذا التحرك المريب اقترب في الفترة نفسها وفي السنوات القليلة التالية بحركات أمريكية لإذكاء نيران الخلافات الدينية في كل منطقة الشرق العربى ، بالتوسع في إرسال المبشرين الأمريكان وافتتاح المدارس الأمريكية . إلى أن اشتعلت الحرب الطائفية الأهلية في لبنان في نفس السنة التي

مات فيها واردر كريسون وهي سنة ١٨٦٠ ، وأنشئت في أعقاب ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، ونحن على مشارف الصهيونية السياسية الرسمية ، التي رفع لواءها تيودور هرتسل ، نلاحظ حركة غليان هائلة في جميع الأوساط اليهودية في أوروبا وأمريكا . كان اليهود إذ ذاك ينظرون إلى حركات الوعي القومي التي عمت الأوربيين والأمريكان ، منذ سقوط نابليون ويريدون السير في هذا الركب ، وأن يتبلور لهم هم أيضاً قومية ممتازة . وكانوا ينظرون إلى حركات التصنيع والاستعمار راغبين في أن يستفيدوا منها مادياً . وبالفعل كانوا قد وصلوا في ذلك كله إلى نتائج ملموسة ، فمع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حصلوا على حقوق الإنسان وفي ظل نابليون وصلوا إلى أن يكون لهم مجلس ملي معترف به من فرنسا ، يرأسه حاخام أكبر تنتخبه الطائفة . وتامت لهم في ظل الرأسمالية الصناعية الأوربية والأمريكية مؤسسات اقتصادية غنية مزدهرة ، تشتغل بالصناعة والتجارة والمال وأعمال المصارف . ومع رقي الصحافة ، واتساع التعليم ، وتطوير الجامعات ظهر من بينهم علماء وفنكرون ومؤلفون ، قاموا بدور كبير في بلورة العصبية الاسرائيلية ، وجمعها تحت شعارات قومية وتاريخية وسياسية كانت الصهيونية آخرها .

فمن رجال السياسة نذكر الوزير البريطاني درزائيلي ، ومن رجال المال والأعمال اشتهرت أسر أوربية يهودية بأكملها منها روتشيلد وهيرش ، ومن المفكرين وقادة الرأي اليهودي يائني في الطليعة الفيلسوف

مندلسون الذى كان من أنصار « الاندماج » أى دخول اليهود فى المجتمع الأوروبى كمواطنين عاديين لهم كل الحقوق ، وعليهم جميع الواجبات . وقد لقيت دعوته رواجاً بين الشبيبة اليهودية فى القرن التاسع عشر ، كما ارتطمت بمعارضة شديدة من المفكرين القوميين ، وفى مقدمتهم الزعيم الاشتراكى اليهودى الألمانى موسى هيس ، الذى نشر عام ١٨٦٢ كتابه الكبير « روما وأورشليم ، أو « أحدث مشكلة قومية » يدعو فيه إلى استعمار اليهود لفلسطين . وقد أكمل المفكر اليهودى ليون بنسكر هذه الدعوة بما سماه ببرنامج « التحرر الذاتى » ، وهو تخطيط سياسى واجتماعى لإخراج اليهود من العزلة ، وانتفاعهم بالازدهار الاستعمارى والرأسمالى الغربى ، دون أن يفقدوا قوميتهم أو يذوبوا فى غيرهم من المجتمعات . وقد ساعد على توطيد مثل هذه الأفكار فى الأذهان اهتمام من جانب العلماء والأدباء والمؤرخين اليهود بتقديم صور من التراث الإسرائيلى تهدف إلى تقوية العصبية بين أبناء قومهم . ومن لا يمكن إغفال ذكرهم فى هذا الصدد المؤرخ اليهودى الألمانى « هنرى جريتش » ، واسمه الكامل « هاينريش صبي هيرش جريتش » المولود فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨١٧ فى بوزنان من أقاليم بولونيا ، ومات فى ميونخ يوم ٧ سبتمبر سنة ١٨٩١ . وقد عكف عن دراسة تاريخ اليهود منذ البداية إلى القرن التاسع عشر الذى عاش فيه . وفى جميع أصقاع الأرض التى طرقتها أقدامهم قديماً وحديثاً . وألف فى ذلك كتابه المشهور « تاريخ اليهود » الذى صدر بالألمانية فى عشرة مجلدات ضخمة . وذاع صيت الكتاب ومؤلفه الذى آلت إليه أستاذية التاريخ فى جامعة « برسلاو » . وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية

والانجليزية والبولونية والروسية واليهودية « اليديش » والعبرية وتأثر به الرأي العام اليهودى فى العالم تأثراً هائلاً كان رد فعله أن ثارت موجة من التعصب الأوروبى ضد هذا التكتل اليهودى على أيامه . والكتاب يعتبر ملحمة أدبية أكثر منه تحقيقاً تاريخياً ، وقد أدى دوره كما أراد له مؤلفه ، فألهب شعور اليهود ودخل إلى كل بيت من بيوتهم .

وإذا كانت كل نواحي النشاط التى أبدتها هؤلاء العاملون من أبناء الإسرائيليين من أجل قومهم تبدو مشروعة ولا يكاد يكون عليها غبار ، فإن الأمر لم يعد أن يظهر فى نفوس هذه الفترة متعصبون لليهودية وصل تطرفهم إلى درجة التآمر الاستعمارى المجرم . وفى مقدمة أولئك اليهودى النمىسى أدولف كريميه ، واسمه الكامل اسحق موسى أودولف كريميه . وكان مولده فى « نيم » سنة ١٧٩٦ ، ومات بباريس يوم ٩ فبراير سنة ١٨٨٠ وقد نشأ فى بلدته بجنوب فرنسا . نشأة عادية واصل فيها تعليمه ، ثم ذهب إلى مدينة « أكس » حيث حصل على ليسانس القانون عام ١٨١٧ ، واشتغل بالمحاماة فى هذه المدينة . وبدلاً يبحث عن الشهرة عن طريق المرافعة أمام المحاكم فى القضايا السياسية الكبرى ، التى كانت كثيرة فى فرنسا فى ذلك الوقت . وذاع صيته فانتقل منذ عام ١٨٣٠ إلى باريس ، وأصبح من كبار المحامين المتخصصين فى قضايا الصحافة بالذات ، وهو أمر مكنه من أن يخضع لإرادته أقوى وسيلة من وسائل الإعلام وتحريك الجماهير فى ذلك الوقت . فانتخب عضواً فى مجلس النواب الفرنسى

سنة ١٨٤٢ ووقع عليه الاختيار وزيراً للعدل في الحكومة المؤقتة لثورة سنة ١٨٤٨ ، ثم أعيد انتخابه مرة أخرى عضواً في الجمعية الوطنية . وبقى يراوغ ويداور سنين طويلة ، عاملاً على إحياء القومية اليهودية في أوروبا كلها حتى ضاقت به السياسة الفرنسية ذرعاً فانكمش طيلة أيام الامبراطور نابليون الثالث ولم يعد إلى الحياة السياسية إلا عام ١٨٦٩ حيث نجح بصعوبة في الانتخابات النيابية وفي دورتها الثانية .

وعندما تكونت في فرنسا الحكومة التي تسمى حكومة الدفاع الوطني ضد التهديد الألماني بقيادة بسمر، تولى منصب وزارة الداخلية فيها كما آلت إليه وزارة الحربية مؤقتاً . وظل يتقلب في أرقى مناصب الدولة حتى أصبح سنة ١٨٧٥ عضواً دائماً في مجلس الشيوخ .

وهذا الرجل كان طوال حياته يستغل كل الظروف لصالح القومية اليهودية ، حتى إذا تعارضت مع المصلحة العامة أو مع المبادئ الإنسانية كلها . فبمجرد وصوله إلى باريس رشح نفسه لعضوية المجلس الملي لأعلى للطائفة الإسرائيلية وتم انتخابه فعلاً . وبسرعة طالب الحكومة الفرنسية بتقرير مرتبات سنوية في ميزانيتها لرجال الدين اليهود في جميع أنحاء فرنسا أسوة بالمتبع مع رجال الدين المسيحي إذ ذاك ، وأجيب إلى طلبه ، وفي سنة ١٨٣٢ ، وكانت فرنسا قد منحت لأبنائها المقيمين بسويسرا جميع حقوق المواطن العادي ، طلب مثل هذه الحقوق ليهود سويسرا النازحين من فرنسا وحصل عليها . أما احتكاكه بالعرب والمسلمين فقد بدأ رسمياً على أثر ما يسمى في التاريخ اليهودي « تهمة الدم » في دمشق يوم ٥ فبراير سنة ١٨٤٠ ، كانت سوريا إذ ذاك

تحت حكم والى مصر محمد على باشا . وكان يمثله في دمشق شريف باشا فحدث أن اختفى أحد الرهبان الفرنسيين الكابوشيين وهو الأب توما . فشاع في المدينة كلها أن اليهود خطفوه ليقتلوه ويعجنوا بدمه خبزهم الخاص بطقوس عيد الفصح . ولم يستبعد قنصل فرنسا في دمشق هذه التهمة . كما أن الحكومة الفرنسية لم تتحرك تحركاً يرضى اليهود .

والواقع أن « تهمة الدم » لم تكن الأولى في تاريخ اليهود ، على الرغم من أن الدم محرم في شريعتهم بالنص ، وأن دم البشر أشد تحريماً لأنه دم كغيره من الدماء من ناحية ، ولأن سفكه واقع تحت وصية من وصايا موسى العشر إذ يقول « لا تقتل » ولكن تكررت التهمة في أماكن كثيرة من العالم يصعب أن يقع بينها تواطؤ أو اتفاق لتباعد الزمن والمكان : من أوائل العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، وفي إيطاليا ، وانجلترا ، وإيران ، وفرنسا ، وألمانيا . . . الخ . وإذا كان بعض هذه التهم يعتبر افتراءً سببه التعصب ضد اليهود ، فإن كثيراً منها يبدو دامغاً لليهود ، بسبب ما كانوا فيه من ظلمات الجهل بدينهم ، والتعلق بكثير من البدع والخرافات التي لعب فيها حقدهم على البشر دوراً كبيراً . ومهما يكن من شيء فلسنا هنا بمعرض البحث عن دم الراهب توما ، ولكننا نقرر فقط أن الفتنة اشتعلت في العاصمة السورية ، فقام شريف باشا بالقبض على سبعة من رؤساء الطائفة للتحقيق معهم ، ولا شك في أنه أغلظ لهم العذاب ، حتى مات أحدهم وهو محتجز للتحقيق ، ودخل آخر في الإسلام ليقسم على

القرآن أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر. ويتمول اليهود: إن حكومة شريف باشا حصلت على اعترافات من اليهود أنفسهم أدت إلى وضع عدد منهم في السجن من بينهم بعض رجال الدين . وهنا قام أدولف كرمبسيه عن طريق الصحافة والاجتماعات اليهودية بخلق كتلة إسرائيلية أوربية تضم يهود انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وشرع في مهاجمة محمد علي ، ومع الإسلام كله وراح وهو المحامي المشهور يطالب والى مصر بالاعتذار عما حدث في سوريا ودفع تعويض ضخم للطائفة الاسرائيلية . وكانت الدول الأوربية إذ ذاك تتلمس العلل لخلق المشاكل لمحمد علي ليجدوا منفذاً لسياساتهم الاستعمارية في الشرق .

وأراد والى مصر أن يتجنب المشاكل ، فكتب إليه اعتذاراً ، وطلب منه الحضور لمقابلته بالاسكندرية وتسلم المبلغ المطلوب للتعويض . فكون وفداً انضم إليه فيه المليونير اليهودى البريطانى مونتفيورى والمستشرق اليهودى الفرنسى المتبحر فى الشؤون العربية سالمون مونك . ومن الاسكندرية ذهب الثلاثة إلى فلسطين وأسسوا بالمبلغ الذى حصلوا عليه مستعمرة يهودية على مشارف النقب الشمالى بالقرب من مدينة عسقلان ، وافتتحوا بها مدرسة لتخريج المهندسين الزراعيين المدرسين على استصلاح الأراضى ، لتكون نواة الاستعمار اليهودى فى قلب العالم العربى .

وهذا الرجل هو نفسه الذى أصدر القانون الخاص بيهود الجزائر بعد احتلال فرنسا لها ، وهذا القانون يقضى بمنح الجنسية الفرنسية ، والامتيازات الخاصة بالمستعمرين لكل اليهود الذين يعيشتون فى القطر

الجزائري ، وكان هدفه من ذلك هو تمكين هذه الجموع الكبيرة من اليهود المغاربة ؛ من أن يكونوا عملاء للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا ، وهو القانون الذي توسعت فيه فرنسا عند احتلالها لتونس والمغرب الأقصى ، فطبقت على اليهود هناك أيضاً ، وكان من أثر ذلك أن تعقدت الأمور بين العالم العربي والإسلامي وبين فرنسا عند إعلان دولة إسرائيل وتحت ضغط الرأسمالية اليهودية الفرنسية ، مع ما صحب ذلك من نضال المغرب العربي كله ضد المستعمرين . والذي يكشف الارتباط العضوي بين الاستعمار والتعصب اليهودي في المغرب العربي هو هذه الهجرة الجماعية ليهود الجزائر يوم إعلان استقلال هذه البلاد لشعورهم بكل المؤامرات التي كانوا مسؤولين عنها طيلة عهود الاستعمار .

وأدولف كرمييه هو أيضاً الذي أعطى كل جهوده لتدعيم الجمعية المسماة بالاتحاد الاسرائيلي العالمي ، وهي ما تزال إلى الآن تمارس نشاطها في جميع أنحاء العالم بما في ذلك الكثير من البلاد الإسلامية بل بعض البلاد العربية وهذه الجمعية اليهودية العالمية تسعى إلى خلق اليهودي الصهيوني المتعصب عن طريق تربية أطفال اليهود في مدارسها المنتشرة في كل مكان ، وكانت دائماً تنسق جهودها مع الأهداف الصهيونية في فلسطين بجمع التبرعات لإقامة دولة إسرائيل فيها والإشراف على اختيار المهاجرين والمتطوعين ، ونشر الوعي بالمنجزات اليهودية عن طريق الصحف والندوات والحفلات ، كما كانت وراء كثير من المؤامرات الاستعمارية في العالم العربي والإسلامي .

لمحة سريعة إلى المستقبل

وبعد فإن المتتبع لتاريخ اليهود عبر العصور سيجد أن دولة إسرائيل المغروسة بالإكراه في قلب العالم العربي ، هي الخلاصة العصرية للتعصب اليهودي الكامن المنقوع في الأحقاد العنصرية المريضة ؛ التي حرص هذا المجتمع الغريب على تنميتها .

وهي تقوم على استقراء هذا التاريخ ، وتطبيق الوسائل الجهنمية الهدامة التي أثبتت قوتها في تجارب مختلفة على مر الزمان . وهي كلها تتلخص في أن من يسمون أنفسهم « شعب الله المختار » يدركون في قرارة أنفسهم أنهم وعددهم لا يتجاوز في العالم كله الخمسة عشر مليوناً لن يتمكنوا من السيطرة على هذا العالم وتحقيق حلمهم الرهيب في استعباده إلا إذا رضوا أن يكونوا عملاء وأذئاباً وكلاباً حراسة لا تتمتع بقوة العدد وإمكانيات العلم والمال . ولا يهمهم أي الأمم هذه ، فقد تعاونوا قديماً مع الفراعنة ثم انقلبوا عليهم وراحوا ينافقون إمبراطوريات العراق القديم ، ثم خانوها مع إيران عندما قويت شوكة الفرس ، ثم عادوا فانقلبوا عليهم وخضعوا لالاسكندر اليوناني ، وطالت مراوغتهم للرومان حتى ضاقوا بهم ذرعاً فاقتلعوهم اقتلاعاً . وبقى النهج القديم والداء القديم أيضاً ، ينمو في قلوبهم المظلمة ، فما إن ظهرت أول حركة استعمارية في العصر الحديث بزعامة نابليون بونابرت حتى خطبوا ودها ، ومن بعدها الاستعمار البريطاني ، وتغزلوا كثيراً في القوة الشيوعية الناشئة في روسيا وأوروبا الشرقية حتى إذا نالوا منها أقصى

ما يستطيعون انقلبوا نحو الاستعمار الأمريكي الجديد فربطوا سياستهم بسياسته الظالمة المتجبرة . وبين العصور القديمة والعصر الحديث رأينا الأيام الجميلة المعسولة التي قضوها في أحضان العرب والمسلمين طوال العصور الوسطى ، مستفيدين لأنفسهم من ذلك أثنى ما كانوا يحلمون به وهو إحياء التراث العبرى والنجاه من الفناء والحصول على ركائز من الغنى والجاه ولن يدهشنا أن نراهم غداً في إسرائيل ، وقد اكتشفوا المخلب السحرى الذى يشبكون به كيانهم فى قوة هائلة من قوى المستقبل هى الصين الشعبية ، أو أن نراهم بعد غد حلفاء لطاقة علمية واقتصادية عظيمة كاليابان ، أو نراهم فى مستقبل ما قريب أو بعيد ، وقد استطاعوا أن يوحّدوا بين وجودهم ووجود العرب والمسلمين كل هذا ممكن وليس عجيباً منهم ما دام رائدهم هو المصلحة الخاصة لعنصرهم فقط على حساب جميع العناصر البشرية التى لا يضيرهم فى شيء أن يضحوا بها .

وقد قيل عنهم فى كثير من المجتمعات الأوربية : إنهم يمثلون فى العالم « الأقلية الساحقة » وهى سخرية تتعدى حدود النكتة البسيطة إلى الإشارة إلى خطورة هؤلاء الناس على المجتمع البشرى كله والمتتبع لخطب قادتهم وزعمائهم فى أيامنا هذه يلاحظ سرعتهم جميعاً فى التلويح بالحلول الجهنمية ، والتهديد بالدمار الشامل إذا هم لم يصلوا إلى تحميق أغراضهم بكل أسف لانهاية لها ، ولا حدود تقف عندها ، ولا حتى من النيل إلى الفرات . إن إذلال الإنسانية كلها ، واستعبادها لإسرائيل أمر مغروس فى العقل الباطن لهؤلاء الناس . وهم يقولون إن شعب الله المختار ، بكل نعمائه وامتيازه وعظمته وجلالته ، قد أصبح

مستعبداً لفرعون ، ثم صبيحاً مستباحاً لبختنصر ، ثم ضحايا الرومان ثم خطباً لنيران الهتلرية ، فماذا على العالم لو انعكست الآية ؟ وهم وراء كل هذا يقولون دائماً إنه ، إذا كان على إسرائيل أن تنهار فإن عليها أيضاً أن ينهار العالم معها في نفس الوقت

وهذا تهديد صريح للسلام العالمي يجب أن تفهمه الإنسانية كلها في أبعاده العجبية الحقيقية .

أما فيما يعيننا نحن العرب وأمم الإسلام ، فإن الجولات السابقة مع الصهيونية ، وهي جولات سلبية النتائج على طول الخط . لا بد أن تعلمنا شيئاً هاماً أشرنا إليه منذ البداية وهو أن زوال إسرائيل أمر ضروري لحرية العالم العربي والإسلامي وازدهاره ورقبه وأن النتائج السلبية التي واجهناها لا تعنى على الإطلاق أن نتزحزح عن هذا الهدف الأساسي ، كما يبدو من صنيع بعض المفكرين منا ، الذين يحاولون أن « يتأقلموا » في الوجود الصهيوني الإسرائيلي الاستعماري . إن مشكلة الآن هي أن يتحول زوال الصهيونية عن وطننا من هدف تكتيكي استراتيجي . أي أننا نعمل له مهما طال المدى ، تماماً كما عمل اليهود لإنشاء إسرائيل ، والمهم هو ألا يغيب عن أنظارنا ، وألا تلهينا عنه ، أو تميته في ضمائرنا ، الحلول البديلة أو التسويات الوقتية وما تعد به من أمن وراحة واسترخاء . زوال الصهيونية في هذا الركن من العالم أمانه في أعناق العرب والمسلمين مهما استغرق ذلك من أجيال . ونحب أن نقول في النهاية : إننا لا نعنى بزوال إسرائيل من المنطقة وزوال الصهيونية من العالم ، إبادة اليهود أو الدعوة إلى إفنائهم ، أو حتى

اضطهادهم والتعصب ضدهم ، ولكننا نقول كما قال الكثيرون من المستنيرين منهم : إن اليهودى إذا شفى من حقدته على العالم استطاع أن يجد له وطناً فى كل مكان ، كالمسيحى والمسلم والبوذى والزندقى ، وهو وراء ذلك كله واجد وطنه القومى والروحى فى التوراة والتلمود ، كما يجده المسلم فى الكتاب والسنة ، والمسيحى فى الانجيل وأعمال الرسل . وقد عرف الإسلام قديماً كيف يشفى قلوب اليهود المريضة بحيث تم التآخى بين الأمتين فى ظل الراية العربية ، لا المسلم يجور على اليهودى ولا اليهودى ينال من المسلم ، وكان ذلك عصرأ ذهبياً باعتراف كل أقطابه ومفكره ، وإنما بدأت اليهودية تتردى إلى الحضيض عندما ضعف أمر العرب ، وتمزق ملك المسلمون ودبت الفتن فى مجتمعهم هنا وجد اليهودى نفسه بلا ولى ولا نصير . وقد يجد نفسه فى مثل هذا الموقف فى فلسطين فى المستقبل القريب أو البعيد ، إن ظل محترفو الصهاينة هم القادة الذين يقررون مصير قومهم فى إسرائيل ، حينئذ سيكون الأمر أخطر من مجرد صراع بين اليهود والعرب ، لأنه سينتهى حتماً إلى كارثة عالمية لا يعلم أبعاد الدمار فيها إلا الله .

القدس

مدينة الله ... ؟ أم مدينة داود ... !

بقلم

الأستاذ الدكتور حسن ظاظا

كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

من الحاضر إلى الماضي

لإسرائيل أسلوب لا يعوزه الدهاء في السياسة التي تنتهجها في مشكلة الشرق الأوسط ، وهو أسلوب تحاول به أن يطول بقاؤها بفلسطين ، في عالم يتميز بآن عمر الاستعمار فيه قصير ، وحياته في البلاد التي يتشبت بها رهيبه مرة لا راحة فيها ولا اطمئنان . وأسلوبها هذا مبنى على « التعقيد » ، والانحراف بالمسائل عن الطريق الواضحة المستقيمة بإثارة مشاكل جانبية مفاجئة ، من الأفضل لدى قادة الصهيونية ألا ترتبط بفن تنسيق العلاقات الدولية ، والدخول إليها من أبوابها الواسعة ، بقدر ما ترتبط بغيبات مظلمة ، وأساطير متنكرة في ثياب التاريخ ، و « ميتافيزيقيات » غير إنسانية ، إن لم تنجح في خداع العالم بصورة نهائية فإنها ، على الأقل ، تجره في دوامتها السحرية مدة من الزمن تطول أو تقصر بحسب الظروف . وإسرائيل تخترع هذه « العقدة » وتفتعلها بتوقيت دقيق بحيث تتراكم وتتراكب حتى تصبح ملفات « مشكلة الشرق الأوسط » في مكاتب هيئة الأمم المتحدة ، وأرشيفات وزارات الخارجية في العالم أشبه بمجلدات التلمود ، التي لا تدعك تنفذ من اعتراض إلا لتقع في إشكال ، أو تنزلق في شبهة ، أو تنساق إلى نقاش كلامي طويل ، ينتهى بآن تصرخ متسائلا وقد كادت أعصابك تنهار : والآن . . . أين القول الفصل ؟ . . أين الحلال والحرام ؟ وهيئات أن تجد جواباً ! وليس أشد إزعاجاً لكهنة السياسة الاسرائيلية في قديم الزمان

وحديثه من « القول الفصل » ، ومن الحل العادل المنطقي الإنساني المباشر ، وكلما ظهر في طريقها من يكشف لولبيتها ، وتعقيدها هذا للبسيط من الأمور ، مما لا يدع لها مجالاً للمغالطة والتهريج ، لجأت معه إلى الجريمة . . إلى القتل : هكذا كان موقفهم قديماً من نبيهم أرمياء ، ومن يوحنا المعمدان ، ومن عيسى المسيح ، وهكذا إلى أن نصل حديثاً إلى اغتيال اللورد « موين » وزير المستعمرات البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ، والكونت « برنادوت » السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة ، وما لا يحصى غيرهم من ضحايا الظالمات الإسرائيلية المطبقة

وهناك « عقدة » ظل الإسرائيليون يدخرونها للوقت الذي يصل بهم الحرج في ميدان السياسة الدولية إلى ذروته ، وهي القدس . فمنذ بدأ المشروع الصهيوني المعاصر نشاطه في أواخر القرن الماضي ، والقائمون عليه يحتاطون جداً في لمس هذه العقدة ، حتى اضطروا طوال مدة مديدة إلى أن يتزودوا لها بوجهين يقولان كلامين مختلفين بحسب المستمعين .

الوجه الأول : هو الوجه اليهودي القح الذي يتكلم إلى اليهود الإقحاح فلا يترك قسماً غليظاً ولا قولاً معسولاً في الاستيلاء على القدس ، و « تطهيرها » من الإسلام والمسيحية إلا قاله . ولا يكاد ينعقد اجتماع صهيوني كبير أو صغير ، من اللقاء العابر المرتجل في بعض الأعياد أو المناسبات ، إلى المؤتمرات الصهيونية العالمية ، حتى يطلق اسم « أورشليم » مرات ومرات ، وسط الحماس المتهوس الذي لا يعرف له رأساً من رجلين . . وأبسط ذلك وأقربه منالاً هو الترجم بنص من

الزمير (مزمور ١٣٧/٥/٦) يقول : « إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني
يميني . ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك ، إن لم أرفع أورشليم على
قمة ابتهاجي » ويقال : إن تيودور هرتسل - زعيم الصهيونية
الحديثة - كان قد وافق على اقتراح السياسي البريطاني « تشمبرلين »
الكبير في إعطاء اليهود وطناً قومياً في أوغنده بوسط أفريقيا ، ولكن
غلاة الصهيونية ثاروا على زعيمهم ، واعتدوا على مساعده « ماكس
نورداو » بالرصاص ، واتهموا « هرتسل » نفسه بالخيانة ، وعند
اجتماع المؤتمر الصهيوني العالمي السادس بدأوا يهتفون ضده من القاعة
حتى إذا ما بدأ ينشد « إن نسيتك يا أورشليم » . . . نسوا هم كل
شيء ، وصفا له الجو ، وسلمت له الزعامة ، بعد أن سلمت لهذه
الجماعة الهستيرية « مدينة داود » .

وأما الوجه الثاني ، فتلتفت به الصهيونية إلى الأمم الأخرى ،
تلتفت لتقول لهم كلاماً معسولاً أيضاً عن « المدينة المتحف » ،
« المدينة المقدسة » لكل الملل والأديان ، « مدينة الله » . وكانت
إسرائيل بهذا الوجه تستجدي رضا الرأي العام المسيحي في أوروبا
 وأمريكا وتحذر الرأي العام الإسلامي في إفريقيا وآسيا ، وتتهرب من
نقمة العلمانية واللاعنصرية في العالم أجمع .

وهكذا جعلوا عاصمتهم أولاً « تل أبيب » لا « القدس » وقنعوا
من إرضاء بسطاء اليهود في العالم ببناء « أورشليم جديدة » على أطراف
المدينة التاريخية تتكون من بضعة أحياء إلى الغرب والشمال أشهرها
« رحبيا » و « محض يهودا » و « كرم إبراهيم » ثم أضافوا إليها

أحياء عربية اغتصبوها بالإرهاب مثل « البقعة » و « القطمون » و « بيت صفافا » وغيرها . وجعلوا في حكومتهم وزارة خاصة اسمها « وزارة الشؤون الدينية » ، ورضوا بأن تبقى المدينة القديمة « القدس الشريف » بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وغيرها من المعالم والمشاهد المسيحية والإسلامية المقدسة جزءاً من المملكة الأردنية يفصله عن إسرائيل سور معترف به كحدود دولية من هيئة الأمم المتحدة .

ثم خطت الصهيونية خطوتها الجريئة في حرب يونيو ١٩٦٧ فأزالت هذا السور واحتلت القدس التاريخية ضمن ما احتلت - وما تزال - من الأراضي العربية داخل حدود الأردن وسوريا والجمهورية العربية المتحدة ، وتسارعت فأعلنت « توحيد القدس » أي ضم القدس الشرقية - وهي المدينة العربية التاريخية - إلى « أورشليم الجديدة » ، وإدخالها في مخطط « تهويد » معلوم مرسوم . ولكي يبتلع العالم كل هذه المغالطات دون صياح كثير؛ قسم قادة الصهيونية أنفسهم إلى « جوقات » كل منها يتجه بصوته جهة خاصة يلقي فيها بالبيانات والتصريحات المناسبة : « بن جوريون » و « موسى ديان » وبقية « الكورس القومي » يعلنون أنه لا إسرائيل بدون القدس التاريخية ، « مدينة داود » ، وأن الحائط الدولي الفاصل بين القدس القديمة - شرقاً ، والجديدة غرباً؛ كان وصمة في جبين الشعب اليهودي ، وأن المدينة كلها يهودية مائة في المائة بماضيها ، ولا بد أن تصير كذلك في مستقبلها . وفي نفس الوقت يقف في الجهة الأخرى « الكورس الدبلوماسي » بقيادة « أبا إيبان » و « إيجال آلون » ليؤكد أن

القدس « مدينة الله » وأن المعالم المقدسة فيها لها حصانة سماوية لا يمكن المساس بها ، وأن المدينة المقدسة مفتوحة على مصراعيها للناس جميعاً من كل الملل والنحل وأنها ستظل كذلك .

وتترسب في الرأى العام العالمى ، فى العقل الباطن للناس ، انطباعات هى وحدها التى أرادها اليهود ، أنهم أصحاب الحق الشرعى والتاريخى الأول فى هذه المدينة ، وأنهم لا يتكلمون من مركز القوة فحسب ، بعد نكسة يونية ١٩٦٧ ، بل من سجلات التاريخ أيضاً ، وكاد العالم أن يبتلع ما شاءت الصهيونية بدون صياح كثير .

ثم تشتد المقاومة الفلسطينية فى كل مكان ، وتصمد الأمم العربية الواقفة على خط المواجهة ، ويطول صمودها بما يخيب ظن إسرائيل ، بل أنها لاكتفى بالدفاع المتكافئ عن مواقعها فتالتن القوات الإسرائيلية الضاربة ، كلما حدث إشتباك ، درساً فى ضرورة التروى والتفكير الطويل قبل الدخول فى اشتباكات أخرى ، وتخرج من جزع الهزيمة ومراة الدفاع المستमित إلى إمكانيات التخطيط للمستقبل ، ويبدأ ذلك بتنسيق كامل بين الجبهات الثلاث ، ثم بينها وبين قيادة الكفاح الفلسطينى المسلح ، على نحو يجعل الغلاة من قادة الصهيونية قلقين على المستقبل جداً . فالانتصار السهل فى معركة محلية خاطفة ، قد حل محله خطر الحرب الشاملة إذا هم أصروا على طلباتهم ، والوقوف خلف المدافع عند خطوط وقف إطلاق النار سنين طويلة ، سيهز الصورة الرائعة التى رسمتها الدعاية الصهيونية للجيش الإسرائيلى الذى لا يغلب بين جماهير اليهود الطبيعيين البسطاء فى العالم ، الذين يعيشون على

رومانسية عسكرية حالة، تستمد عناصرها من قصة داود وتغلبه على العملاق جالوت ، هذا فضلاً عن أن وقوف السنين الطوال خلف المدافع سيحد أيضاً من الإنتاج ، وسيصيب بالعمم والجرب مواسم الحج والسياحة ، وسيطلب المليارات من الليرات الإسرائيلية ثمناً لهذا الترف الذى تتحاشاه أكبر الأمم وأغناها ، وسيترك لحلفاء إسرائيل والواقفين وراءها فرصة طويلة للتأمل والتفكير الهادئ فى المصالح الحقيقية والدائمة لشعوبهم ، ستنتهى غالباً بانفضاضهم عنها كلياً أو جزئياً . وقد بدأ ذلك فعلاً بتخلى فرنسا عن تبنيها للصهيونية ، وأعقب ذلك انكماشاً من جانب انجلترا وإيطاليا وتركيا والأرجنتين وغيرها من دول العالم فى موقفها من الصهيونية .

فى وسط هذا الدخان الكثيف ، يشب حريق المسجد الأقصى ، ولأمر ما تحرص إسرائيل على أن تعلن منذ بداية التحقيق أن المسؤل عن هذه الجريمة « مايكل روهين » ليس يهودياً ولا إسرائيلياً بل شاب استرالى من أتباع طائفة مسيحية متطرفة ، ولكن العالم لا يبتلع ذلك بسهولة ، ويبدأ القلق ، لا بين المسلمين وحدهم ولكن بين جماهير العالم المسيحى أيضاً . وتذهب إسرائيل فى الاعتذار عن أقل ما يمكن اتهامها به وهو؛ الإهمال فى القيام بمسئولياتها عن أمن الأماكن المقدسة وسلامتها كل مذهب . ولكن حججها تبدو واهية هزيلة لا تفلح فى إزالة القلق الشديد من نفوس غير اليهود فى الشرق والغرب . ويقوم وزير خارجيتها « أبا إيبان » بجولاته التقليدية ، لا يألو فيها جهداً ، حتى يصل إلى الفاتيكان وإلى لقاء قداسة البابا بولس السادس نفسه

ولكن المقابلة « التاريخية » لا تأتي الا بنتائج « سلبية » . وتعان
رئيسة الوزراء السيدة « جولدا مائير » عن عزم الحكومة الإسرائيلية
على ترميم المسجد الأقصى على نفقتها - مجرد عمالية تخريب .
ناجحة بكل أسف ، لمؤتمر القمة الإسلامي .

كل هذا « والعقل الباطن » للعالم كله مايزال ينقع في تاريخ
فولكلورى مؤداه كما قلنا أن القدس « مدينة داود » وأن ما يحدث
فيها الآن - على بشاعته - هو صراع بين « ظواهر » طارئة وبين تاريخ
قديم يريد أن يعيد نفسه . فلنعد إذن إلى التاريخ ولنتركه يقول ما عنده
باختصار .

أورشليم (القدس) قبل العبريين

أقدم النقوش التي ورد فيها ذكر هذه المدينة موجودة عندنا في
المتحف المصرى بالقاهرة ، في مجموعة اللوحات المكتوبة بالخط
المسارى واللغة البابلية (لغة العراق القديم) تتخللها شروح باللغة
الكنعانية (لغة فلسطين القديمة) . وهذه النقوش تسمى « لوحات
تل العمارنة » وقد عثر عليها في أوائل القرن العشرين في هذه المنطقة
من محافظة أسيوط ، وهى وثائق دبلوماسية ترجع إلى عهد الفرعون
أمنو فيس الثالث (من ١٤١١ إلى ١٣٧٥ قبل الميلاد) وابنه اخناتون
(١٣٧٥ - ١٣٥٠ ق . م)

تسمى أورشليم (القدس) في هذه النقوش « أورو سالم » . ففي
رسالة كتبها « عبد يحييا » إلى أمينو فيس الثالث نجد أن الأول هو
حاكم القدس « أورو سالم » من قبل فرعون ، وأنه يستنجد بمدد

عسكري لصد غارات شراذم من العجر الرحل اسمهم « حبيرو » اتفق الباحثون على أنهم « العبريون » كما ذكر ذلك الاثرى « بندلبورى » الذى أشرف زمنأ طويلا على الحفائر فى هذه المنطقة وألف فيها كتابه المشهور « حفائر تل العمارنة » . ويقول المؤلف نفسه أن معبد « آتون » فى تل العمارنة بخطته المعمارية المتميزة ، وبالخلفية الدينية التى جعلته قبلة للناس كافة هو الذى ألهم بناء المعابد فى بلاد النوبة ، والآسيويين فى أورشليم فكرة « المعبد المركزى » أو « المعبد القبلة » الذى يتجه إليه الناس جميعاً فى صلاتهم ويأتون إليه فى حجهم .

نجد اسم أورشليم بعد هذا التاريخ يتكرر فى لغات أخرى ، ففى نقوش الامبراطور الآشورى سنحاريب (حوالى ٧٠٠ ق . م) يرد اسمها هكذا « اوروسليمو » وفى العبرية « يروشاليم » وفى النقوش اليونانية من عهد الاسكندر الأكبر (حوالى ٣٣٠ ق . م .) وردت بلفظ « هيروسوليا » أو « سوليا » باختصار ، وانتشر اسمها من الكتاب المقدس فى جميع لغات العالم تقريباً .

أما اسم « القدس » فلايد أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها . أى منذ ما قبل العبريين عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة ببعض العبادات القديمة ، وعلى أية حال فإن المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م .) لم يذكر فى تاريخه المشهور اسم أورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة فى الجزء « الفلسطينى » من الشام وسماها (قديتس) مرتين فى الجزء الثانى والثالث من تاريخه ، ويقول المستشرق اليهودى الفرنسى « سالومون مونك » فى كتابه « فلسطين »

إن هذا الاسم على الأرجح هو « القدس » محرفاً في اليونانية عن النطق الآرامى « قديشتا » . وحتى اليهود في الكتاب المقدس قد أطلقوا عليها أحياناً اسم « مدينة القدس » (اشعيا ٤٨-٢ ، نحميا ١١-١) ، و « جبل القدس » (اشعيا ٢٧-١٣) كما سميت « مدينة الله » (المزمير ٤٨-١) « مدينة الحق » (زكريا ٨-٣) .

واسم « أورشليم » ليس عبرياً أصيلاً ، فقد كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول العبريين إليها بشهادة نص تل العمارنة ، وبدليل أن اليهود وجدوا صعوبة في كتابة اسمها باللغة العبرية « يروشاليم » فهذه الياء الواقعة قبل الميم الأخيرة لم تكن تثبت في الكتابة العبرية ، وقد كتبت بدونها في أسفار العهد القديم ٦٥٦ مرة وكتبت بها ست مرات فقط ، ولذلك نص علماء التلمود على وجوب كتابتها بلاياء (التوسفتا كتاب الصوم « تعنيت » ١٦-٥) .

أما معنى « أورشليم » فمختلف فيه أيضاً ، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من « أور » بمعنى موضع أو مدينة و « شالم » وهو اسم الد وثنى لسكان فلسطين الأصليين هو « إله السلام » - يالسخرية التاريخ ! . فالمدينة إذن كانت مكرسة لاله السلام حتى وصل العبريون . وهناك من يقول : إن كلمة « أور » معناها الميراث ، فيكون « أورشليم » بمعنى ميراث السلام . أما أحبار اليهود فيدعون أن سام بن نوح قد سماها « شلم » أى السلام وأن إبراهيم الخليل قد سماها « يراه » وهى بمعنى الخوف باللغة العبرية فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعاً « يراه - شلم » أى « أورشليم » بمعنى الخوف والسلام (المدراش -

الشرح الكبير على سفر التكوين « بريشيت ربا - ٥٧) وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائديات رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب . وقيل أيضاً أن « يرو » يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى « إله » ويكون اسم المدينة بكل بساطة « إله السلام » .

ولو توفرت الأدلة على أن سام بن نوح هو الذى سمي المدينة باسمها ؛ لوافقنا أحبار اليهود على أن المدينة نفسها ترجع إلى عهد سيدنا نوح ، ولكن لم يقل أحد غيرهم بذلك ، حتى التوراة نفسها فإنها تتحدث عن « أورشليم » لأول مرة في زمن إبراهيم (حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م .) وكان اسمها « شاليم » فقط ، وكان ملكها من سكان فلسطين الأصليين ، ويبدو من السياق أنه كان يحكم حكماً دينياً ، تقول التوراة (سفر التكوين ١٤-١٨) « وملكيصدق ملك شاليم أخرج خبزاً ونبيذاً ، وكان كاهناً لله العلى ، وباركه وقال : مبارك ابرام من الله العلى مالك السماوات والأرض » . فاورشليم (القدس) كانت مدينة مباركة لله العلى من قبل داود بل من قبل إبراهيم أيضاً .

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالى ١٤٥٠ ق . م .) كان العبريون قد أصبحوا بعشائرتهم التى تهدد أمن المدن الفلسطينية خطراً يحسب حسابه ، ويؤكد ذلك نص تل العمارنة الذى أشرنا إليه . لذلك نجد تحالفاً يعقد بين أمراء الفلسطينيين على أثر انتصار يوشع بن نون في أريحا وعاي وجبعون ، (يوشع ١٠/٣/٤) « فأرسل أدونيصدق ملك أورشليم إلى هوام ملك حبرون (الخليل) ، وفرآم ملك يرموت ، ويافع ملك لكيش ، ودبير ملك عجلون » . ولكن

يوشع بن نون ينشر الرهبة في كل فلسطين فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الآخر ، ويصالحه فريق من « الخائفين » على امتيازات معينة يتنازلون عنها للعبريين . وكانت « أورشليم » من المدن الفلسطينية التي قاومت الغزو قروناً طويلة . فمثلاً نجد يوشع بن نون نفسه يجعلها في نصيب قبيلتي بنيامين ويهوذا من أسباط بني إسرائيل ، ولكنهما لم يستطيعا - ولمدة طويلة جداً - طرد سكانها الأصليين « اليبوسيين » وهم إحدى القبائل الفلسطينية القديمة ، (يوشع ١٥/٦٣) : « وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم » . والمقصود اليوم الذي يروى فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدة علمها عند الله . وبعد موت يوشع بن نون أعاد سبط يهوذا الكرة على أورشليم ، « وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار » ، سفر القضاة ١/٨ . أما سبط بنيامين فإنهم فشلوا كذلك في طرد اليبوسيين وسكنوا معهم « إلى هذا اليوم » (قضاة ١/٢١) .

لذلك بقيت أورشليم تسمى « ييوسن » أو « مدينة اليبوسيين » كما جاء في سفر القضاة (١٩) ، وفي هذا الموضوع نجد نصاً يستحق الانتباه ، حين يقول في سياق القصة التي يرويها : « .. » « وفيما هم عند ييوس ، وقد انحدر النهار جداً ، قال الغلام لسيدة : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا » .

وسنرى أن المدينة المقدسة ظلت إلى عهد داود لليبوسيين ، سكانها الأصليين من شعب فلسطين . ومعروف أن داود عاش حوالي سنة ألف قبل الميلاد ، وبالتالي ظلت مدينة « السلام » من أول ما لقيناها في التوراة على أيام إبراهيم إلى تلك الفترة - نحو ألف سنة - تقاوم التسلسل العبرى ، والمطامع اليهودية ، فلا ينال الإسرائيليون منها الا بالتخريب والإحراق حيناً أو بالمساكنة والتعايش السلمى أحياناً .

ومع داود فقط تبدأ « عقدة أورشليم » مدينة الله ومدينة السلام ومدينة اليبوسيين الفلسطينيين منذ... منذ ما قبل التاريخ كما أثبتت ذلك أحدث الحفائر التي أجريت في المنطقة . ومن المستحسن قبل أن نخطو الخطوات الأولى نحو « أورشليم اليهود » أن نتصور - بما يمكن من ايجاز ووضوح - طبيعة اقليم القدس وموقعها .

تقع القدس على خط عرض ٣١° ٤٦' ٤٥" شمال خط الاستواء وعلى خط طول ٣٥° ١٣' ٢٥" شرق جرينتش ، وهى هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ ، ٢٤٦٩ قدماً . وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير ، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠° صيفاً وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء ، كما أن التفاوت في الحرارة كبير بين النهار والليل ، ومطرها شتوى متوسط ، ورطوبتها متوسطة أيضاً . ويندر بها الثلج . وليس بها أنهار ، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب . وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة بهطول الأمطار . وكانت المدينة إلى عهد ليس بالبعيد تعتمد أساساً على تجميع مياه الأمطار في صهاريج

وآبار أعدت لهذا الغرض ، وأعلى مرتفعاتها يوجد على حافاتهما الشرقية والجنوبية الغربية والشالية ، ولذلك اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قوياً جداً واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعد ، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها وهم ما يزالون على مسافة طويلة .

وأهم جبالها هي :

١- جبل الزيتون*:

وهو المواجه لأسوار الحرم من الجهة الشرقية ، يفصله عنه واد عميق سريع الانحدار هو « وادي قدرون » وامتدادهما من الجنوب إلى الشمال . وهو من الوجهة التاريخية من أهم الجبال المحيطة بالقدس : والتلمود يسميه « جبل المسح » أي جبل التتويج ، لأنهم يأخذون من زيتونه الزيت المقدس الذي يستعمل في تتويج ملوكهم ، وعليه كانت تحرق بقرة القربان الحمراء (في التلمود ، وهي في القرآن « صفراء فاقع لونها » ، وكانوا يستخدمون الرماد المتخلف عن إحراقها في تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا دنس ، وهي عادة وثنية منتشرة في هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية . وفي أسفل هذا الجبل توجد حديقة المعصرة « جتسماني » التي اكتسبت ذكريات قدسية لدى المسيحيين من صلاة يسوع عندها وهو في النزاع الأخير . وفي أعلاه مغارة ألتى فيها المسيح بعض تعاليمه ، والتقى بحوارييه قبل صعوده إلى السماء ، وعليه بكى المسيح على « أورشليم » وحياة المؤمنين به

بالأغصان الخضراء يوم «أحد السعف» الذى يتقدم الفصح . والعرب يسمونه اليوم « جبل الطور » .

٢- جبل بطن الهوا :

وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها « وادى سلوان » الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون . ويسميه اليهود « هارها مشحيت » أى « الجبل الفاضح » ، ويزعمون أن سليمان أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات ، وأنه هو المقصود فى سفر الملوك الأول^(١) ١١/١-٨: « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات ، وأدوميات ، وصيدونيات ، وحيثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحب ، وكانت له سبعمائة من النساء الحرائر وثلاثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أمّلت قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب الهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتروت الالهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان معبداً لكموش ، رجس المؤابيين ، على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الأجنبيات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن » .

(١) هكذا فى سفر الملوك ، وهو — كما هو ظاهر — خطأ فاضح نسبته عبادة الأصنام لسليمان عليه السلام بميله إلى نسائه ، وهو مخالف لعصمة الأنبياء عليهم السلام .

٣- جبل صهيون :

في الجنوب الغربي للقدس القديمة ، وكانت عليه قلعة اليوسيين التي انتزعها داود منهم بالحرب ، ثم نقل إليها قاعدة حكمه التي كانت حتى السنة الثامنة لتوليهِ الملك في جبل « جرزيم » بالقرب من نابلس شمالاً ، وسماه منذ هذا الوقت « مدينة داود » . وكان يفصل جبل صهيون قديماً عن هضبة القدس جبل أقل ارتفاعاً يمتد منحنيّاً على شكل هلال إلى الشمال الشرقي من صهيون ، وكان يمر بين الجبلين واد ضيق كان يسمى حسب قول المؤرخ اليهودي يوسفوس (من القرن الأول الميلادي) « وادي الجبانة » التيروبويون « أي صانعي الجينة ، وكان يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حيث يتصل بوادي سلوان ، الذي يتصل بدوره بوادي قدرون شرقاً . وهذا الجبل الصغير لم يرد له اسم خاص في الكتاب المقدس ، ولكن في عهد الملك اليوناني السلوق انطيوخوس الرابع (ابيفانوس) الذي حكم الشام من ١٧٥ إلى ١٦٤ ق . م . ثار اليهود على حكمه فحضر وقمع ثورتهم وبني على هذا الجبل الصغير المواجه للقدس من الغرب قلعة سماها « أكرا » ومن ثم أصبح هذا الجبل يسمى :

٤- جبل أكرا

٥- جبل موريا

أو جبل بيت المقدس ، أو بالاختصار « الحرم » حيث المسجد الأقصى وقد ورد اسم « موريا » في التوراة (التكوين ٢٢/٢) في قصة الذبيح الذي أمر الله إبراهيم أن يقدمه قرباناً وحدد له هذا الموضع ليذبح

فيه ابنه إسحق ، والموضع ما يزال حتى الآن محل خلاف كبير في هذه القضية بين الباحثين وبين اليهود أنفسهم ، فاليهود السامرة يرون أن الحادثة كانت على جبل جرزيم القريب من نابلس ، حيث قام أقدم هيكل لبني إسرائيل وهو الذي جاء داود فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس ، أما طوائف اليهود الأخرى فتزعم أن وقعة إبراهيم بابنه كانت على هذا الجبل بالقدس ، وعلى الصخرة الشريفة بالذات . وأكثر المسلمين يعتقدون أنه إسماعيل .

٦- جبل رأس المشارف ، سكوبوس :

ويسميه التلمود « جبل المراقبين » (هارهاصوفيم) وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقي إلى الشمال يفصل بينهما منخفض يسمى عقبة الصوان .

٧- ويبدو أنه كان في قديم الزمان جبل يقوم بين جبل سكوبوالس وبين هضبة الحرم « جبل موريا » ذكره يوسنفوس في كتابه (حرب اليهود - الجزء الأول ، الباب الخامس) وسماه « بيزيتا » أي « بيت الزيتون » أو « منبت الزيتون » . ولما تولى « اجريبا الأول » (٤١-٤٤ ميلادية) وهو من أسرة هيرودس التي اهتمت كثيراً بتجميل القدس كما سترى ، ردم ما بين « جبل موريا » وجبل « بيزيتا » ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى « المدينة الجديدة » .

وعلى ذكر هذا الردم بين جبلين فقد حدث في القدس نفسها قبل ذلك ، في حكم الأمير اليهودي المكابي شمعون من أسرة الحشمونيين

التي كانت تحكم فلسطين حكماً دينياً من قِبَل اليونان ، نقول : في هذا الوقت (سنة ١٤٠ ق. م .) قام شمعون بردم ما بين تل « أكرا » حيث قلعة انطيوخوس السلوقي ، وبين جبل الحرم « موريا » بحيث صاراً شيئاً واحداً أيضاً .

وهكذا إذا أخرجنا جبل الزيتون وامتداده جنوباً وشمالاً ، لانفصاله التام عن القدس بالمنخفضات والوديان الشرقية والجنوبية ، والجنوبية الشرقية وأخذنا في الاعتبار أن جبل الحرم « موريا » أصبح يضم جبل « بيزيتا » من الشمال الغربي ، وجبل « أكرا » من الجنوب الشرقي ، أمكننا أن نقول : أن المدينة كانت تقوم بهذا الشكل على مرتفعين اثنين هما : هضبة الحرم ، وقبالتها في الجنوب الشرقي « جبل صهيون » يفصل بينهما جزء من وادي الجبانة « تيروبويون » ، وهذا ما لاحظته المورخ اللاتيني تاسيت في كتابه (الجزء الخامس) .

ويذكر يوسفوس أيضاً أنه كانت هناك قنطرة تربط هضبة الحرم « جبل موريا » بالزاوية الشمالية الشرقية لجبل صهيون حيث كان يوجد كورنيش يقال له باليونانية (كسيسستوس) وهذا العمل يرجع أيضاً إلى أمراء الحشمونيين الذين حكموا باسم اليونان في فلسطين ، فهم الذين ردموا جزءاً من الوادي وبنوا قنطرة قائمة على عقود مقوسة توصل من مدينة داود « على جبل صهيون إلى « الحرم » على جبل موريا ؛ وهو الطريق الذي يمتد الآن من الحرم إلى باب السلسلة .

ولا نستطيع وقد أوضحنا مواقع جبال القدس وما طرأ عليها إلا أن نشير إلى المنخفضات ، أو الوديان الفاصلة بينها مجتمعة بعد أن سبقت الإشارة لبعضها في مواقعها .

١- وادى قدرون شرقاً :

وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر ، وقد اشتهر باسم « وادى يهوشافاط » (سفر يوثيل ٢/٣ ، ١٢) وطوله نحو كيلو مترين يفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون ، ويعتقد كثير من الطوائف المسيحية واليهودية أن الحشر يوم القيامة سيكون فى هذا الوادى اعتماداً على قول النبى يوثيل : « أحمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادى يهوشافاط وأحاكمهم هناك » ، وفى الموضع الثانى الذى أشرنا إليه يقول النبى يوثيل : « تنهض الأمم وتصعد إلى وادى يهوشافاط لأنى هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية .

٢- وادى سلوان جنوباً :

وهو اسم النبع الموجود فى هذا الوادى ، والذى ينساب منه مجرى ماء اسمه جيحون ، أما الوادى نفسه فكان يحمل قبل مجئ العبريين اسم قبيلة « هنم » بتشديد النون ، فكان يقال « وادى هنم » أو « وادى بنى هنم » وكلمة الوادى كانت فى لغات سامية قديمة متعددة هى كلمة « جى » ، فكان يقال « جهينم » أى هذا الوادى نفسه ، وكانت هذه القبيلة ، فى الوثنية البعيدة فى القدم ، تقدم الضحايا البشرية إلى الهها « مولك » بذبحها وإلقائها فى النار ، ومن هذه الصورة أطلق اسم « جهنم » على مكان العذاب فى الآخرة للشبه القائم

بينهما . ووادي « هنم » أو « سلوان » أو « جيحون » هذا يمتد على على طول جنوبي القدس ؛ حتى الطرف الجنوبي الشرقي من جبل صهيون . وسمى هذا الوادي بين العرب « حقل الدماء » .

٣- وادي الجبانة أو « التيروبيون » :

يفصل جبل صهيون عن غرب القدس ويبدأ حيث ينتهي وادي سلوان ، وكان يسمى في الجزء الجنوبي الغربي من القدس « وادي الزبالة » أو « وادي الدمن » أو « وادي القمامات » ، وقد أشرنا إلى ردم جزء منه في أعمال توسيع لجبل صهيون ، وللحرم المقدس الواقع على جبل « موريا » الذي هو هضبة الحرم الشريف .

٤- وادي الارواح

« رفائيم » بالعبرية ، أو العفاريت ، يدور حول غرب جبل صهيون وأقصى الجنوب ، وبه مدافن للموتى .

داود . . . ومدينته

قلنا : إن القدس ظلت فلسطينية في أيدي اليبوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داود . كان داود من الجنوب ، من صحراء النقب ، حيث اختارت قبيلة - سبط يهوذا - تلك الجهة مسرحاً لحياتها البدوية الرعوية . ثم إنه انتقل إلى الشمال حيث كان نبي بني إسرائيل « صموئيل » قد توج أول ملك على كل الشعب هو « شاعول » ، وكان داود قد ألحق ببلاط شاعول . وفي هذه الآونة كان سكان البلاد الأصليين « الفلسطينيين » يريدون التخلص من الوجود « العبري » في بلادهم ، وكانت الحرب سجالاتاً بينهم وبين الاسرائيليين وبرز

من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو « جالوت » استطاع داود أن يقتله بحجر أطلقه من مقلع ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ، وأخذها ليفخر بانتصاره في الجنوب ، ومر بها على أورشليم . ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود في الاتساع حتى بات الملك شاموول يحقد عليه ، ويدبر الأمر لاغتياله دون جدوى ، وأخيراً تعرض شاموول لهزائم ساحقة ومتعددة من « الفلسطينيين » انتهت بأن انتحر على أحد الجبال على أثر معركة فاشلة . وأصبح داود بعده ملكاً . فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توطأً من حيث الموقع ، فوجد مطلبه هذا في « مدينة اليبوسيين » أورشليم . فهي قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود ، وهي وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء ، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة ، ثم إنها بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنهم كانوا أكثر ميلاً إلى المسالمة من أهل الشمال .

بدأ داود بالاستيلاء على جبل صهيون ، وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن القدس ، وكانوا يسمون جبل صهيون بالمنشآت القائمة عليه « المدينة الفوقانية » ، بالنسبة لهضبة الحرم (جبل موريا) التي كانوا يسمونها « المدينة التحتانية » . استولى داود إذن على « المدينة الفوقانية » وحصنها وجعلها قاعدة لحكمه ، ولما كانت أسرته هي سبط يهوذا ، فمنذ هذا الوقت بدأ العبريون أو الإسرائيلون يسمون باليهود أيضاً ، ولما كان داود ، على طريقة أمراء بني إسرائيل ورؤسائهم في العصور القديمة ، وعلى طريقة الكثير من

الحكام القداماء ، يستمدون سلطتهم من « الله » ، فقد جعل من صهيون مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعاً . ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود في العصر الحديث تسمية أكثر سحراً في آذان فقراء اليهود وبسطائهم من « الصهيونية » وما تقترب به من قوة داود وشدة شكيمته وأمة سليمان وبهاء عظمتهم وفخامته على عرشه الأسطوري العجيب ؛ فاختاروها اسماً وشعاراً .

ظل داود يضغط على اليبوسيين ، ويضايقهم في جبلهم (موريا) ويربهم صنوف الإذلال ، وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتى لم يبق إلا مسطح القمة ، فكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ملكاً لليبوسى « آرونا » يتخذة جرنأً ومريضاً لماشيته ، فاشتراها منه داود بما فيه من المواشى ، وقالوا في عنعنات شفوية يهودية لا يقوم عليها أى دليل : إن داود جعل من الصخرة التى على الهضبة مذبحاً للرب . وصاغوا حول ذلك أساطير لا تكاد تنتهى حتى قالت بعض نصوص التلمود (توسفتا- يوماً/ ٨٤ ، ٨) « إن الله تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة » وقال أحد أحبارهم وهو اليعازر البابلى « إن الصخرة هى أصل خلق الأرض ، وإن صهيون هو سره العالم ، وهو كامل الجمال والبهاء » (التلمود البابلى - يوماً/ ٥٤) . وجاء فى كتاب « زوهر » وهو من كتب التصوف اليهودى المشهورة « إن يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت أبيه اسحق » بينما المعروف أنه نام فى « بيت ايل » قرب نابلس . ولكن هذا التحريف يهدف إلى نقل قدسية « بيت ايل » المجاورة لنابلس ، والتى ظل اليهود السامريون على وفائهم لها كقبيلة ليعقوب ، إلى أورشليم .

والحق أننا لا ندرى أية صخرة يعنى اليهود ، فالتلمود يذكر أن الصخرة التي يقدسونها ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاثة أصابع (التلمود - يوما / ٨٥ - ٣ ، ٤ ، توسفتا ٦ / ٨٣ وموسى بن ميمون في كتابه « طقوس يوم الغفران ») بينما الصخرة الموجودة حالياً ترتفع عن مستوى سطح الأرض بنحو متر كامل ، ومحيطها يناهز العشرة أمتار ، وتحتها فجوة هي بقية مغارة قديمة عمقها أكثر من متر ونصف ، تبدو الصخرة فوقها وكأنها معلقة بين السماء والأرض ، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار .

ومن الذين شكوا في أن تكون الصخرة الشريفة هي الصخرة المعنية في التلمود ، الباحث الألماني « شيك » في أوائل هذا القرن ، فهو يقول : إن الصخرة الحالية ربما كانت على أكثر تقدير إحدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط . ولم تكن في يوم ما داخله « ضمن » قدس الأقداس » . أما صخرة اليهود التي يسمونها بعد أساطير التلمود التي أشرنا إليها « ايبن هاشتيا » - أي حجر الأساس - فالله أعلم ماذا صنع بها بختنصر وانطيوخوس ابيفانوس وتيتوس وفسبازيان وهديان والصليبيون وغيرهم ممن دمروا أورشليم مراراً وتكراراً تدميراً كاملاً .

والعجيب في أمر الباحثين اليهود ، وفي مقدمتهم دوائر المعارف العبرية المختلفة وما كتبوه من المؤلفات عن القدس ، أنهم إذ يؤكدون بدون أية حجة أن الصخرة الشريفة هي « حجر الأساس » المذكور في التلمود ، ينفون نفيماً باتاً أن تكون كنيسة القيامة بالقدس ذات علاقة بأيا كانت بجسد المسيح - عليه السلام - ، فدائرة المعارف الإسرائيلية

العبرية المنشورة في نيويورك سنة ١٩١١ تقول في هذا الصدد: إن دفن الموقى داخل أسوار القدس كان لا وجود له إطلاقاً ، وإن أقرب المقابر إلى أسوار القدس هي مقابر « سامبوسكى » عند قدم جبل صهيون من الطرف الجنوبي الشرقي خارج السور مباشرة ، والمقابر المذكورة تحمل اسم العائلة التي بنت فيها مدفناً كبيراً في العصر الحديث ، وقد عثر فيها على مقابر قديمة أيضاً ، وأضاف كاتب البحث إلى ذلك أنه طيلة عهد الهيكل الثاني « (أى من القرن الخامس قبل الميلاد إلى سنة سبعين ميلادية) لم يدفن أحد داخل أسوار المدينة المقدسة ، وبناءً على ما ذكر يكون مستحيلاً في رأيه أن يكون الجسد المصلوب قد دفن في هذه البقعة التي هي من صميم أورشليم وفي داخل أسورها .

ولا نريد أن نناقش الأمر « بيزنطياً » وإنما نشير إلى أن المسيح وأتباعه لم يتمسكوا من الشريعة القديمة إلا بالناموس الموسوى ، والأوامر والنواهي التي أبلغها الأنبياء ، أما « التلموديات » التي لا تعد ولا تحصى فقد كانت رسالة المسيح في جهرها ومنطوقها تنادى وتجاهر بإبطالها وتطهير العقول منها ، حتى لا يخضع الشعب اليهودى خضوعاً أعمى لظلامها المطبق ، الذى تفرضه السلطة الكهنوتية اليهودية على الشعب البسيط المخدوع المحروم من النور الحق ، ومادام الأمر كذلك ، فما الذى يفرض على أتباع المسيح في عشية الصلب ، وأيدي كهنة التلمود ما تزال مخضبة بدمائه ، أن يحترموا عرفاً لا يستند إلى أمر أو نهي من الله ؟ ثم إن الحفائر المختلفة ما تزال كل يوم تكشف عن موقى لا يحصى عددهم وجدت عظامهم داخل الأسوار .

مدينة داود . . . بعد داود

ورث سليمان داود ، وكان ملكاً يحب الفخامة ويميل إلى حل مشاكل السياسة والاقتصاد حلولاً دبلوماسية لا يلجأ فيها إلى قوة السلاح ، فصاهر جيرانه مبتدئاً بالقصر الفرعوني في مصر إذ تزوج ابنة فرعون ، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة . وحاول أن يجعل عاصمة ملكه - أورشليم - لا تقل عظمة وعمراً عن لعواصم الكبرى في الشرق في زمانه ، فبدأ بتشييد سور فاخر حول المدينة ، ثم أخذ في بناء المعبد الكبير - الهيكل - الذي كان أبوه داود قد بدأه قبل موته ، ومع ذلك فإن الأخبار الأسطورية عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن أن تكون قد نجت من شطحات الخيال اليهودي الحالم فجاعتنا مبالغاً فيها أشد المبالغة . وهكذا يقول الكاتب اليهودي الأمريكي لويس براون في كتابه المسمى « حياة اليهود » إن إنجازات سليمان في أورشليم ، وفي مقدمتها قصره الملكي كانت تبدو في عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور . مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة في مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة سمجة الذوق . . كان القصر مكوناً من عدة أبنية منفصلة : بناء للصناع ، وقاعة للاجتماعات ، وبهو للعرش ، والمحكمة العليا ، و« حرملك » كبير يكفي لسكنى المئات من نسائه . وكان هناك أيضاً معبد ، وهو بناء صغير طوله مائة قدم وعرضه ثلاثون قدماً ، موضوع فيه « تابوت العهد » - هذا الصندوق الذي تحفظ فيه التوراة ولا شك أن المعبد كان بالنسبة لسليمان مشروعاً أقل أهمية من القصر ، كان

مقصورة دينية في بلاط الملك ، ولذا لم يستغرق بناؤه أكثر من نصف الوقت الذي استغرقه بناء القصر . ولكنه مع مرور الزمن ، وبعد الكهنة والأنبياء الذين وفدوا عليه على طول حكم أسرة داود ، كان يتخذ في خواطر اليهود مكانة ، وكانت له من بعد ذكريات ، ربما لم يستطع شيء آخر على هذه الأرض أن يضمن مثل ما استطاع هو بقاء إسرائيل عليها ، مع أنه كان في حد ذاته أصغر من أي معبد يهودي في أمريكا الآن ، ومن كثير من كنائس الأرياف المنتشرة في أنحاء العالم . بالرغم من هذا فإنه أقوى بناء شيدته يد الإنسان من حيث عمق أثره وقوته ، وما يقوله لويس براون صحيح ، بل ربما كان دون الأبعاد الحقيقية لسيطرة هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم ، بعد تدميره وانذاره . وحتى الآن اقترنت أورشليم به ، وتقدس لدى اليهود من أجله وإذا ذكر اسمها فالمراد هو أولاً وقبل كل شيء ، وما كتبه الكتاب والأخبار من شطحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلدات . بحيث كان كل اليهود في حاراتهم القذرة وأسماهم البالية ، على الثلج ، وفي الوحل ، يعيشون في هيكل أورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الأخبار ، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على ألسنتهم - وبخاصة في عيد الفصح - هي « السنة القادمة في أورشليم » وهو شعار استغلته الصهيونية ، وكهربت به أعصابهم ، وأعطته كل المعاني الحربية والعسكرية الممكنة . ولندكر نموذجاً واحداً من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناه من كتاب التصوف اليهودي « زوهر » ٢/ ٢٢٢ : « عند خلق العالم ، ألقى الله حجراً كريماً من عرشه العظيم في الفضاء المظلم ، فغمس فيه جزءاً من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم . وهذه البقية

البارزة كمنقطة في هذا الفضاء اللانهائى بدأت تمتد في كل الاتجاهات عن يمين وشمال ، وأُرسيت الدنيا عليها ، ولذلك يسمى هذا الحجر « حجر الأساس » . وكان تكوين الأرض حوله على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر ، نورانية شفافة ، والثانية من حولها مصنوعة من مادة أقل شفافية ولكنها أكثر رقة في الأرض ، والثالثة أرض معتمة ، يطوقها المحيط الذى يدور حول العالم . وهذه المناطق الثلاث ممثلة في الهيكل الذى فى أورشليم : فالمنطقة النورانية ، وهى النقطة العظمى ، عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم ، والثانية ، الأقل شفافية هى الأرض المقدسة « فلسطين » ، والثالثة المعتمة هى بقية العالم حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفار . أما المحيط الذى يدور بكل شىء فهو مملكة الجن التى تحيط بالعالم . ولم تر الدنيا قط شيئاً أجمل من ستائر تابوت العهد . وعندما أدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بآية المزامير ١٣٢/١٤ : هذا مستقرى إلى الأبد وهنا سوف أُقيم . وكان صوت روح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل . ولولا الهيبة التى يجب اصطناعها أمام مقدسات الناس جميعاً تادباً واحتراماً لمشاعرهم ؛ لعبرنا عن رأينا بصراحة فى مثل هذه الشطحات ، وإن كان لا يغيب عن البال ما تهدف إليه الرواية لهذا اللون من الأدب الشعبى من تأكيد العنصرية البغيضة التى اخترعها « شعب الله المختار » وكان أول من اصطالى بنارها أيضاً ، ومن تأكيد البقاء الأبدى فى « أورشليم » ، بينما المسكين قد عاش تائهاً

غارقاً في « المنطقة المعتمة » القريبة من « مملكة الجن » المحيطة بالأرض . . . رحمه الله .

وما كاد سليمان يلقي ربه حتى حدثت حرب أهلية بين الأسباط وانقسمت المملكة شطرين ، وأصبح الهيكل وأورشليم قبلة لنصف العبريين فقط .

ثم تعرضت القدس مباشرة لهجوم الجيش المصري الفرعوني (حوالي سنة ٩٧٠ ق. م) . وهي تحت حكم « رحبعام بن سليمان » . وتوالى عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحمة : من الأدوميين في الأردن إلى العرب إلى الآراميين إلى الإسرائيليين في مملكة الشمال ، عندما هاجم يهوآش ملك إسرائيل أمصيا ملك أورشليم ويهوذا وهدم أسوارها وأخذ ما في الهيكل من الذهب والفضة والأواني ، ونهب القصر وأخذ بعض الرهائن وعاد إلى السامرة (الملوك الثاني ١٤ / ١٤) .

وتكرر الزحف المصري على أورشليم في حكم الفرعون نخاو ، وكان ملك يهوذا يهو آحاز (حوالي ٦١٠ ق. م) .

ثم انتعشت أورشليم في عهد الملك عزيا الذي حكم أكثر من نصف قرن من الزمان ، وكان مهتماً بتحسينها فبنى حولها أبراجاً وحفر آباراً وأنشأ البساتين والحدائق (اخبار الأيام الثاني ٢٦) . واستمر إنشاء البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوثام .

وتبلور الخطر الأشوري على القدس في عهد سنحاريب الذي كان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا ، فأخذ هذا الأخير في زيادة التحصينات بالقدس وقام بردم آبار الماء التي في خارجها حتى لا ينتفع العدو بها

وكذلك الجداول الجارية منها ، ودعم السور في المواضع المتهدمة منه وحصن قلعة داود على جبل صهيون ، وقام بمشروع هندسي ناجح أجرى به مياه نهر جيحون الذي يجري جنوباً خارج القدس تحت الأرض إلى داخل المدينة ، وأنشأ صهاريج للماء ، وهكذا استطاع أن يراجه الحصار الأشوري دون أن يضطر إلى الإذعان .

الحراب الأول ، والهيكل الثاني

كان بختنصر ملك بابل يحاول أن يسوى حساباً قديماً مع فراعنة مصر ، ولكنه في كل مرة يجد عقبة ما في فلسطين تظهر له فجأة من قبل اليهود فيبوء بالفشل ، وأخيراً « سنة ٥٨٨ ق. م .) هاجم القدس بعد أن كان استولى على أهم أجزاء فلسطين ، ومنها غزة في أقصى الجنوب ، وكان ملك يهوذا في ذلك الوقت « صدقياهو » ، ولما سقطت القدس بعد مقاومة رهيبة أحرقتها الجيش البابلي وخربها ونهبها ، وأخذ معظم أهلها أسرى إلى العراق حيث بقوا سبعين عاماً ، إلى ما بعد نجاح الامبراطور كورش ملك الفرس في احتلال العراق وإسقاط الامبراطورية البابلية ، وقد لقي جيشه بطبيعة الحال كل التسهيلات اللازمة لمهمته من قبل اليهود الموثورين المحتجزين في العراق ، فسمح على الفور بعودتهم إلى فلسطين وتأسيس « وطن قومي » تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه ، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع بن يوصدق وزروبابل بن شلتئيل ، وبعدهما بثمانية عشر عاماً جاء عزراً ونحميا ، الذي أخذ في إعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة :

بصورة أقل فخامة ، ولعل ذلك من فرط إعجابهم الخيالي بهيكل سليمان فقط .

وفي سنة ٣٣٢ ق. م. احتل الإسكندر فلسطين وأدخلت تحت الحكم اليوناني ، ولكن أحد أجباز اليهود وهو « شمعون بن حونيو » استطاع بدبلوماسية أن يحوز رضا الاسكندر وأن يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التلمود ، يوماً) ، وبعد موت الإسكندر استولى بطليموس الأول « سوتير » على أورشليم حوالى سنة ٣١٠ ق. م. وأخذ كثيراً من أهلها أسرى إلى الاسكندرية .

ثم زحف عليها ملك سوريا انطيوخوس السلوقي اليوناني سنة ٢٠٣ ، وعاد فاستردها منه القائد البطلمي « سكوباس » المصرى سنة ١٩٩ والظاهر أن اليهود فى المدينة كانوا أميل إلى حكم السلوقيين ، وقد ساعدوا انطيوخوس على دخول القلعة ، كما يقول يوسفوس ، ومباغثة المصريين فيها . وبسبب ذلك خفف انطيوخوس الضرائب عن يهود القدس ، واهتم بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود . ويصف اليوناني أرسطياس ، المعاصر لهذه الأحداث ، فخامة القدس بما يبين أنها كانت مدينة كبيرة لها أسوار وعليها أبراج ، والخدمة الدينية فى الهيكل كانت على أرفع نظام ، وكان عدد السكان مائة وعشرين ألفاً . وتعود اليهود بعادات اليونان ، وتركوا الرب ، وظهرت فرقة « ياسون » وأخيه « منيلاوس » ، وقالوا : بأن منصب الحاخام الأكبر يجب أن يكون بالوراثة لا بالانتخاب وحدثت فتنة كبيرة ، انتهزها الحاكم السورى انطيوخوس ابيفانوس فزحف على أورشليم سنة ١٧٠ ق. م. ونهبها وذبح كثيراً من يهودها .

وبعد ذلك بعامين هجم قائده ابولونيوس على المدينة مرة أخرى فأكثر فيها من القتل والتخريب واقتحم الهيكل وأقام فيه تمثال انطيوخوس ، وبنى بجواره مسرحاً للتمثيل وأخذ معه رهائن من يهود القدس . فقام من أمراء المكابيين اليهود الحشمونيين « متتياهو » ثائراً ضد اليونان هو وأولاده الخمسة ، ثم أتم يهودا المكابي هذه الثورة بطرد اليونان من الهيكل ، ومن جزء كبير من المدينة سنة ١٦٥ ق. م. وواصل هذا الكفاح شمعون المكابي ، ففي سنة ١٤٣ طرد الحامية اليونانية من قلعة داود « صهيون » .

وعاد اليونان بقيادة انطيوخوس السابع (سيديتاس) في عهد يوحنا هيرقانوس المكابي فاتق هذا الأخير شره بتقديم قوالب من الذهب استخرجها من قبر داود ، يقول يوسفوس : إن وزنها كان ٧٥ طناً ، ثم حدث نزاع على العرش بين هيرقانوس وأخيه أرسطوبولوس في داخل القدس .

أورشليم وروما

أثناء هذه الفتنة زحف القيصر الروماني « بومبي » على فلسطين واحتلها سنة ٦٦ ق. م. وقتل من اليهود في القدس وحدها ١٢٠٠٠ ، بينما كان اليهود يخربون كل شيء بأيديهم ويحرقون المدينة كلها بالنيران حتى لا ينتفع بها العدو .

وبعد مدة وجيزة كثرت الاضطرابات في أورشليم ، فزحف عليها حاكم سوريا الروماني « لوقيانوس كراسوس » ، ودخل الهيكل ونهبه ،

وكان ما فيه من الذهب والفضة والآنية الثمينة يقدر بنحو خمسين طناً .

وزار يوليوس قيصر فلسطين ، فأذن لليهود في بناء الأسوار التي كان بعضها قد تهدم .

وفي هذه الأثناء كان هؤلاء « الأمراء » من أواخر المكابيين ما يزالون يتنازعون على السلطة ، أو ما بقي لهم منها ، في أورشليم ، وهي سلطة أخذ الزكاة من اليهود ، وإدارة القضاء بينهم ، وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم أمارة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الأخرى .

وانتهز هيرودس الأدومي فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ ق. م. يساعده القائد الروماني سوسيووس ، فحاصرها وصبا عليها قذائف المنجنيق واقتحمها وقاما فيها بمذبحة رهيبة .

وافق القيصر الروماني أغسطس على تعيين هيرودس على القدس « وكل بلاد اليهودية » أى النصف الجنوبي من فلسطين فاهتم بإعادة تخطيط المدينة وتدعيم أسوارها ، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة ، لاسيما في النقطة الضعيفة استراتيجياً من المدينة وهي الغرب والشمال الغربي حيث أحياء القدس الحديثة الآن . فأقام في هذه الجهة برجاً سماه برج « هيبيكوس » باسم واحد من أصدقائه قتل وهو يحارب في صفوفه في إحدى المعارك ، وهذا البرج هو الذى يسمى خطأ الان « برج داود » . وفي أقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصناً في موضع حصن « البيرة » الذى أقيم بعد عودة اليهود من السبي ، وكان

قائماً في عهد المكابيين ثم تهدم ، وسماه هيرودس حسن « انطونيا » على اسم صديقه وحاميه انطونيو (صاحب كليوباترا) - أما تسمية « البيرة » فهي فارسية معناها القلعة ، ولم تعرفها اللغة العبرية إلا تحت حكم الفرس ، وكان هذا الحصن مربعاً طول ضلعه نحو تسعين متراً ، وفي داخله قصر عليه سور مربع آخر ، تقوم عليه أربعة أبراج ، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعاً ، والرابع سبعون ذراعاً ، وهو البرج الشمالى الشرقى أقرب هذه الأبراج إلى الهيكل ، ومن أعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الرومان يراقبون ما يجرى داخل معبد اليهود ، الذى حظى من هيرودس أيضاً بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته . وفي الجهة الجنوبية الشرقية استقر الملك المتهود « مونوباز » وأمه المتهودة أيضاً « هيلانه » ، وكانا يحكمان قبل تهودهما مقاطعة أديابين في بلاد الأكراد ، شمال شرق سوريا ثم هودا ولجأ إلى أورشليم فبنيا إلى الجنوب من جبل صهيون قصوراً ومقابر في غاية الإتقان .

كان اليهود في أورشليم لا يكفون عن مناوشة الحامية الرومانية المعسكرة في قلعة أنطونيا . فأمر « أجريبيا الأول » الموظفين الرومان بإحكام الرقابة على اليهود والتشدد في معاملتهم ، ووصل الحقد إلى أقصاه بين الطرفين أثناء دعوة السيد المسيح ، والفتنة التى أحدثها الكهنوت اليهودى حينئذ ، وكان القيصر كليوديوس قد أمر - نكاية في اليهود - بوضع تمثال لنفسه في الهيكل ، بقی في مكانه إلى أن مات هذا القيصر مسموماً سنة ٥٤ بعد ميلاد المسيح .

الحراب الثاني - والأخير - لأورشليم

دأب اليهود على خلق المشاكل للرومان ، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة ، فقرر الأمبراطور الروماني « فسبازيان » القضاء عليهم ، وحل المشكلة كلها هذا الحل الجذرى الدامى ، فأرسل ابنه تيتوس على رأس جيش كبير للقيام بهذه المهمة ، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود واستعملوا فيها كل شيء ، حتى النساء ، فى تليين عريكة تبتوس دون جدوى ، تمّ تخريب أورشليم فى ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية وإجلاء جميع اليهود عنها ، وهو « السبى الثانى » الذى ظلوا فيه من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٤٨ عندما أعلن حايم وايزمان قيام « إسرائيل » .

ولكن بالرغم من أن تيتوس قد بذل أقصى الجهد فى جعل عودة اليهود إلى سكنى القدس أمراً مستحيلاً ، فإن من بقى منهم فى فلسطين لم يكف عن التآمر ضد الرومان .

إيليا كابتولينا ... لا أورشليم

وفى القرن الثانى الميلادى ، سنة ١٣٦ ، قام « بركوكبا » ، أحد نماذج الصهيونية القديمة ، بثورة مسلحة ضد الرومان ، وسجل عليهم ، رغم جيشهم الأمبراطورى الجرار - انتصارات براقفة فى البداية ، ولكن الامبراطور الروماني ايلوس هديران قام آخر الأمر باتمام ما بدأه تيتوس ، فحاصر ما كان بقى من القدس ، وهدم كل شيء فى المدينة ، ولم يترك

فيها يهودياً واحداً ، وجاء إلى مكان الهيكل فأقام عليه معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان ، ووضع فيه تمثالا لهذا الإله كالتمثال القائم في معبد الكابيتول ، وقرر تغيير كل شيء في هذه المدينة ، حتى اسمها ، الذي أصبح مكوناً من اسمه هو واسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير ، فسماها « ايليا كابيتولينا » ومنع اليهود من دخولها ، وجعل الموت عموبة من يقدم منهم على ذلك ، ثم سمح لهم بالمجيء إليها يوماً واحداً في السنة ، والوقوف على جدار ، بقى قائماً من السور في الجزء الغربي من المدينة ، وهو الذي يسمى « حائط المبكى » ويسميه اليهود « الجدار الغربي » وظل حظر السكنى بالقدس قائماً على اليهود قروناً طويلاً ، فقد ذكر ذلك يوزيبوس ، المؤرخ المسيحي الذي زار « ايليا » - القدس - سنة ١٣٢ ميلادية ، كما ذكره اليهود أنفسهم في تفاسيرهم القديمة « المدراش » (سفر الجامعة - قوهيلت ربا) .

دموع التماسيح على حائط المبكى

كان الأتقياء الطيبون من اليهود ، وفيهم أتقياء طيبون ، يقفون على « الجدار الغربي » باكين ، طالبين الرحمة من الله ، والمغفرة لذنوبهم وذنوب أسلافهم ، التي بسببها دمر الله ملكهم مرتين : على يد بختنصور البابلي وتيتوس الروماني . أما كهنة السياسة الصهيونية عبر العصور فجعلوا هذا الحائط « مسمار جحا » ، يتخذونه منطلقاً لكل دعوة عنصرية جديدة . ولذلك زعم بعضهم أنه بقية من سور داود ، وقال آخرون أنه جزء من حائط سليمان ونسبه البعض إلى المكابيين أو هيرودس ، وقد قام الأثريون الإسرائيليون بعد حرب يونيو ١٩٦٧

بعمل حفائر في أساس الحائط ، فكان أكثر ما عثروا عليه ، في الحجارة التي تحت الأرض ، آيتين من سفر النبي اشعيا محفورتين بخط يجعل نسبة هذه الحجارة لداود أو سليمان مستحيلة . ويرجع العثور على هذا النص إلى الشهور السابقة لإحراق المسجد الأقصى ، ولأن الكشف لم يكن دسما من الناحية السياسية كما يريد الصهاينة ، فقد وضعوه في « قبر السكوت » كعادتهم في كثير مما لا يريدون أن يعرفه العالم عنهم .

ولكن الذي لا شك فيه هو أن هذا الحائط جزء من سور المعبد اليهودي وقد يرجع على أكثر تقدير إلى أيام هيرودس ، أي إلى فترة ميلاد المسيح . وتفضى إليه طريق طولها نحو ثلاثين متراً وعرضها أربعة أمتار (وقد نسف اليهود ذلك وعاثوا فيها منذ يونيو ١٩٦٧) .

وارتفاع الحائط ثمانية عشر متراً عن سطح الأرض ، الستة أمتار الأولى منها مبنية بحجارة مستطيلة ضخمة مثل التي يعثر عليها في أساسات السور ، يضاف إليها من فوق ١٤ سطراً من حجارة أصغر يبدو أنها قد على بها الحائط ابتداءً من عصر متأخر جداً هو القرن الثاني عشر الميلادي وما بعده وأساس السور المطمور تحت سطح الأرض عبارة عن ١٩ سطراً من الحجارة المستطيلة الضخمة ، ويمكن رؤية جزء من هذا الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال ، أما بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت إلا بعض النتوءات التي تبرز من مسافة لأخرى ، وهناك ١٢ متراً من الضلع الجنوبي للسور ما تزال بارزة ، وهي بقية العقد المقوس الذي كانت فوقه القنطرة من جبل صهيون

إلى الهيكل - ، والتقاليد اليهودية لا ترى البكاء سنة عند هذا الجزء ،
مما يؤكد أنّ الأصل في هذا البكاء إنما كان على معبد لا مملكة ، وطلباً
للمغفرة من الله لا العون من الولايات المتحدة - ومع الزمن غلبت دموع
المسيح دموع الأنقياء .

وإذا كان المبكى أثراً هودياً يرويه اليهود بدموعهم ، فهناك قبر
في الجنوب لجبر من أحبار اليهود الكبار هو الربى كلونيموس التلمودي
يرجمه اليهود بالحجارة تنفيذاً لوصيته . وتقول أسطورته : إن طفلاً
مسيحياً وجد قتيلاً ، واتهم المسيحيون اليهود بقتله لأخذه و الاستعانة
به في طقوس خبز الفصح حسب الإشاعة التي تتهمهم بعجن هذا الخبز
بدم إنسان غير يهودى فجاء الحاخام كلونيموس وقرأ ودعا على الجنة
الهامة ، فبعث الصبي حياً باذن الله ، ونطق باسم قاتله وإذا به مسيحي ،
فندم كلونيموس على معجزته التي قام بها لمن ليسوا أهلاً لها في نظره ،
وكتب في وصيته أنه يريد أن يعاقب نفسه على ذلك بأن يمنع من وضع
شاهد باسمه على قبره ، وأن يرحمه من يمر بقبره لمدة مائة سنة ،
وإكراماً للرجل فبعض الناس يرحمه إلى اليوم .

القدس الشريف

ظلت « ايليا كابيتولينا » محرمة على اليهود الاسحابة نهار في السنة
ينذرون فيها الدموع على حائط المبكى حتى ظهر الاسلام . واستولت
جيوش عمر بن الخطاب، على القدس سنة ٦٣٧ ميلادية بقيادة خالد
ابن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح . وفي سنة ٦٣٧ ، والجيش

العربي يطوق المدينة ولا يدخلها في انتظار قدوم الخليفة ، كان زعماء المسيحيين في داخل المدينة ينتظرون أيضاً خليفة المسلمين ، ومعهم مشروع معاهدة تقضى بكل ما يريده العرب بشرط الابقاء على الحرية الدينية للمسيحيين ، واحترام المشاهد المسيحية المقدسة في البلد ، واستمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة . وقبل عمر الشروط كلها إلا الشرط الأخير ، معتذراً بأن القرآن قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم ، وليس فيه شيء يسمح بهذا . ولكنه تعهد لمسيحي القدس بالألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم . ثم أراد أن يؤمن للحامية العربية مكاناً تعسكر فيه بالقدس فوجد أن سفح « صهيون » قد عمار قدراً جداً - وقد أشرنا إلى أن وادي القمامات كان يلاصقه منذ أقدم العصور - فصعد إلى الهضبة التي كان يهود يسمونها جبل « موريا » واختط مسجداً بجانب الصخرة الشريفة التي كان النبي محمد ابان حياته قد أسرى به إليها . فصلى عندها ، ودعا القرآن المكان باسم « المسجد الأقصى » . ومن ثم عرج به في القصة المعروفة المذكورة في القرآن .

لم يجزؤ اليهود ، طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل خلفاء الدولة الأموية ، على الاستيطان بالقدس ، ثم سمح لهم بذلك في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذي بنى المسجد الجامع وبنى قبة الصخرة عام ٦٨٨ ، وكان في فناء الحرم على أيامه عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكنس والنظافة نظير إعفائهم من الجزية ، ذكر ذلك تاريخ مجير الدين المخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس .

وفي سنة ٧٠٥ تولى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، فترك في دمشق أخاه الأصغر وحضر إلى القدس وهو ينوى أن يجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية ثم عدل ، وذكر مجير الدين في تاريخه أن المكلفين على عهده بإنارة المسجد الأقصى كانوا من الخدم اليهود ، إلى أن تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٠ - ٧٢٠) ففصل اليهود من هذه الأعمال وجعل خدم الحرم جميعاً من المسلمين .

وفي سنة ٩٦٩ سقطت سوريا وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية بالتماهرة ، واستولوا على القدس في عهد المعز لدين الله الذي كان مشهوراً بعطفه الشديد على الأقليات من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود . فازدهرت في أيامه الطائفة اليهودية ، ولكن حفيده الحاكم بأمر الله (سنة ١٠١٠) ، قسا على المسيحيين واليهود وهدم بعض الأبنية المعظمة عندهم ، حتى أنه أراد ذات مرة أن يهدم كنيسة القيامة كما يروى مجير الدين في كتابه في التاريخ .

وفي أواخر يولييه سنة ١٠٩٩ دخل الصليبيون القدس لأول مرة بقيادة الفرنسي « جوفروا » وأبادوا جميع المسلمين واليهود في المدينة المقدسة وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم ، وحرموا عليهم دخولها ، وإن كان الرحالة اليهودى الأندلسي « بنيامين التطيلي » يذكر في رحلته التي زار فيها القدس سنة ١١٧٠ أنه وجد فيها قليلاً من اليهود يقيمون تحت برج داود ، ويشتغلون صباغين بتصريح من الحاكم الصليبي لقاء مال يدفعونه له .

ويذكر رحالة يهودى آخر من الأندلس أيضاً هو يهودا الحريزى الأديب أنه زار القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين (يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) فسمع عنه أنه يكرم اليهود ويحسن معاملتهم ويشجعهم على الإقامة فيها .

وظل الأمر يتأرجح عنفاً وتسامحاً مع اليهود بين الصليبيين والمسلمين بحسب الظروف إلى أن خلصت فلسطين للمماليك ، وكان اليهود قد كثروا فى القدس ، وبدأت بينهم تنظيمات سرية تفرض عليهم الإتاوات لصالح الطائفة ، وتوقع العقوبة - سراً - بمن يرفض دفع الإتاوة .

حدث مرة فى حكم السلطان الملك الأشرف قايتباى ، من المماليك البرجية (١٤٦٨ - ١٤٩٦) أن أحد اليهود رفض دفع هذه الإتاوة ، فوقع تحت التهديد والإرهاب ، حتى أنه آثر الدخول فى الإسلام ، واغتازت أمه من قسوة زعماء الطائفة عليه ، فأسلمت هى كذلك ، وأوقفت بيتها الواقع فى الحى اليهودى ليكون مسجداً للمسلمين ، وكان مجاوراً للمعبد . فلجأ المسلمون فى المدينة سنة ١٤٧٥ إلى المحكمة الشرعية بالقدس يطلبون إجلاء اليهود من مجاورة المسجد الجديد وإزالة معبدهم . وأصدرت المحكمة حكمها فى صالحهم ، ولكن تبين أن الحكم لا بد أن يصدق عليه من المحكمة العليا فى القاهرة . وفى انتظار التصديق قام المسلمون فعلاً ببعض أعمال الهدم والإزالة ، ولكن السلطات العليا بالقاهرة نقضت حكم المحكمة الشرعية بالقدس ، وأفتت بأنه لا ضير بأن يقوم مسجد للإسلام فى حارة اليهود وبجوار

معبدهم ، وأمرت بإعادة بناء ما تهدم على نفقة المسلمين ، ذكر هذا أحد مشاهير أبحار اليهود الذين عاصروا تلك الأحداث ، وهو الربى عوبديا دى برطينورو فى رسالة له من القدس ، وكان معظم اليهود يسكنون فى حى خاص بهم على جبل صهيون بمعزل عن المسجد الأقصى وكنيسة القيامة .

فى نفس هذا القرن الخامس عشر الميلادى كان العرب قد طردوا من الأندلس ، وكان الإسلام قد دخل أوروبا من الشرق مع السلطان العثمانى محمد الثانى - الفاتح - الذى استولى على القسطنطينية ، ووضع بذلك نهاية للإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

وطرد العرب من الأندلس جر معه جالية يهودية ضخمة كانت تعيش آمنة فى كنفهم ، وهى التى قامت بخدمة اللغة العبرية والدين الاسرائيلى والحفاظ عليهما وتعميق دراستهما ووفد من هذه الجالية جمهور كبير للاستقرار فى القدس ، كما بدأ يفد من بيزنطة أيضاً عدد من اليهود لا يستهان به .

وفى سنة ١٥١٦ انتهى حكم المماليك عندما سقطت القدس فى يد الجيش التركى فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى ومن بعدها مصر أيضاً وبعد ذلك مباشرة كان السلطان سايمان القانونى العثمانى ١٥٢٠ - ١٥٦٦ هو الذى يحكم الامبراطورية الاسلامية الشاسعة وقد أمر باعادة أسوار القدس الشريف على النحو الذى نعرفه الآن .

وهذا السور العالى سبعة أبواب :

١- باب الخليل غرباً ، وهو الذى يسمونه أيضاً باب يافا ، وكان يسمى قديماً باب إبراهيم .

٢- باب النبي داود جنوباً ، واسمه باب صهيون ، وهو على جبل صهيون ملاصق لقبور ملوك آل داود .

٣- باب المغاربة جنوباً من منخفض الجبانة « التيروبويون » ويسمى أيضاً الباب الصغير لصغر حجمه نسبياً ، ومن الأثريين من يزعم أنه باب القمامة القديم ، و الراجع أن باب القمامة كان إلى الجنوب أكثر ، فى أسفل الجبل ومن هذا الباب تخرج جنازات الموتى لتدفن على جبل الزيتون .

٤- باب السباع شرقاً ، والعرب يسمونه باب سباط والظاهر أن الكلمة تحريف يهوشا فاط واليهود كانوا يسمونه قديماً باب « يهوشا فاط » لأنه يطل على الوادى المسمى بهذا الاسم .

٥- باب الزاهرة ، شمالا ، وهو باب هيرودس ، وربما كان فى موضع « باب ساحة الجيش » القديم .

٦- باب العمود ، فى الشمال الغربى ، ويسمونه باب دمشق ، واليهود تسميه باب شكيم « نابلس » .

٧- الباب الجديد ، غربى باب العمود ، ويسمى باب عبد الحميد وهو أقرب الأبواب إلى كنيسة القيامة .

هذا عدا أبواب وبيوَاب داخل القدس نفسها مثل « باب حطة »
الذى يصل إليه الداخل إلى القدس من باب الزاهرة ، وباب السلسلة
القريب ن المسجد الأقصى .

وبعد فهذه جولة في تاريخ القدس تتبعنا فيها اليهود خاصة ،
فوجدنا أن المدينة كانت مقدسة قبل داود بألف سنة ، من أيام الملك
الفالسطينى ملكيصدق ، لدرجة أن سيدنا إبراهيم التمس منه الطعام
والشراب ، وأن يباركه ببركة الله العلى ، ووجدنا أن فترة أواخر حكم
داود وحكم سليمان وهى لا تعدو كلها ثلاثاً وسبعين سنة : ٣٣ لداود ،
٤٠ لسليمان هى الفترة الوحيدة التى كانت المدينة والهيكل فيها مركزاً
وعاصمة لليهود بقوة السلاح أولاً وبالمسالمة والدبلوماسية ثانياً ، ووجدنا
أنه بمجرد موت سليمان تقلصت سلطة القدس بأكثر من النصف ، إذ
كانت دولة إسرائيل فى الشمال لا تعترف لداود ولا بسليمان ولا
بخلفائهما ، لا فى الدين ولا فى السياسة . حتى جاء الآشوريون والبابليون
ووضعوا حداً لكل هذا ، ومنذ ذلك الوقت كانت أورشليم رمزاً ، ولم
يكن وجود اليهود فيها وجوداً مستقلاً ، لا سياسياً ولا اقتصادياً
ولا دولياً ، وإنما كانت لهم فيها زوايا ومعابد لطقوسهم ، وكان يأتى
إليها حجاجهم كما يذهب المصرى أو المغربى أو التركى للحج فى مكة
المكرمة . ووجدنا أن العرب عندما دخلوا القدس الشريف بعد الإسلام
كانت المدينة خالية من اليهود منذ خمسمائة سنة أو أكثر ومن كل أثر

سياسى أو دينى لهم إلا « مسمار جحا » الذى هو حائط المبكى ، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، كانت تحت الإدارة الإسلامية « مدينة الله » بحق يجد فيها المسلم والمسيحى واليهودى صفاء النفس والسكينة الروحانية اللازمة للتأمل والعبادة .

ألف سنة قبل داود ، وألف وخمسمائة سنة بعد داود ، والقدس مدينة الله ، بل داود نفسه لم يكن يسميها إلا مدينة الله ، واليهود يعرفون ذلك جيداً ، ويعرفون أن التلمود كان يعتبرها « مدينة مملوكة لله » ، ولذلك حرمت شريعته أن يمتلك فيها الإنسان بيتاً أو أرضاً أو بستاناً ، أو أن يسكن أحداً فى بيته بأجر ، ولكنهم عند اللزوم كثيراً ما يسكتون جميع الأصوات حتى صوت داود وسليمان وأصوات الأنبياء ، وحتى صوت التلمود .

هيكل سليمان ... وهياكل أخرى

كيف كان الهيكل الذى بناه سليمان ؟ وكيف تم بناؤه ؟ هلبقى منه شئٌ غير تلك الشطحات الأدبية الأسطورية التى يغص بها الأدب اليهودى ، الدينى منه والعلمانى ؟ هل قامت على أنقاضه هياكل أخرى ؟ أسئلة هامة تستوقفنا كما استوقفت الباحثين منذ أقدم العصور . وستقف عندها علنا نجد بصيصاً من نور ، يساعدنا على تبين بعض المعالم ، وعلى تصور البناء فى هيئته الواقعية البعيدة عن تخيلات الحنين اليهودى الحالم ، وعن التلخيص العابر الخاطف الذى ذكرنا مثالا له من كتابة اليهودى الأمريكى المعاصر « لويس براون » .

جاء في الكتاب المقدس أن داود كان يريد أن يبني هيكلًا للرب في
أورشليم ، ولكن النبي « ناتان » أبلغه - من لدن الرب - بأن يترك
هذا المشروع لابنه سليمان (صموئيل الثاني ٧) . لماذا ؟ إن داود نفسه
ليشرح سبب ذلك لابنه سليمان شرحاً له دلالاته ومغزاه ، حتى في العصر
الحديث . وليسمع كهنة الصهيونية التوسعية في فلسطين الان (أخبار
الأيام الأول ٢٢) « وقال داود لسليمان يا بني : كان في خاطري أن
أبني بيتاً لاسم الرب الهى ، فكان إلى كلام الرب قائلاً : قد سفكت
دماً كثيراً ، وقمت بحروب كبيرة فلن تبني بيتاً لاسمى ، لأنك
سفكت دماء كثيرة أمامى على الأرض . وها هو ذا ابن يولد لك ، يكون
رجل سلم ، أسلمه من جميع أعدائه الذين من حوله ، إذ سيكون اسمه
سليمان ، وسأعطى سلاماً وهدوءاً لبني إسرائيل في أيامه وهو يبني
لاسماً بيتاً » .

ومع ذلك فإن داود أراد ، قبل موته ، أن يسجل معاونته الفعالة
لابنه في إقامة الهيكل ، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء ، وكان لليهود
في عصره ما يزالون في بداوة بدائية ينذر فيهم من يعرف أصول حرفة
أو صناعة أو علم من علوم الدنيا ، وسترى أن الاعتماد على الفنيين
الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل
الرب . جاء في سفر أخبار الأيام الأول - ٢٢ : « وأمر داود بجمع
الأجانب الذين في أرض إسرائيل ، فاتخذ نحّاتين لنحت حجارة مربعة
لبناء بيت الله . وهياً داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريح الأبواب
والأوصال ، ونحاساً كثيراً بلا وزن وخشب أرز لا يحصى ، لأن

الصيدونيين والصوريين أتوا بخشب أرز كثيراً لداود ثم أضاف داود وهو يخاطب ابنه في نفس هذا الإصحاح قائلاً : « وها أنذا في مذمتي قد جهزت لبيت الرب مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة ومن النحاس والحديد مالا وزن له لكثرتي ، و جهزت أخشاباً وحجارة وأنت تزيد عليها . وعندك صناع كثيرون للعمل : نحاتون ، ونقاشو حجر وخشب ، وكل أستاذ في كل حرفة » .

هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وهذا الخشب والحديد والنحاس الذي يفوق الوزن والحصر ، وهؤلاء العمال المهرة والأساتذة الخبراء في كل حرفة ، قد أورثهم داود لسليمان قبل أن يترك الدنيا ومن فيها ، فلننظر ماذا كان من أمر « بيت الرب » وبنائه .

أما مكان البناء فالإجماع منعقد ، بناءً على عنعنات شفوية يقال إنها متصلة متواترة على أن الهضبة المسطحة التي تتوج جبل « موريا » - المكان الذي وجد فيه إبراهيم ، قبل سليمان بألف سنة ، الرجل الفلسطيني الأصيل « ملكيصدق » ملك أو شليم ، يعبد الله العلي ، ويقوم بقرى الضيوف فيقدم لإبراهيم الخبز والنبيد ، ثم يباركه « باسم الله العلي » أيضاً .

ظل هذا المكان فلسطينياً قهراً ، في أيدي اليبوسيين ، رغم الضغط الاسرائيلي المتكرر حتى جاء داود ، فوجده ملكاً لنجاح فلسطيني يبرسي اسمه « أرونا » أو « أوزنان » ، وقد جعله جرنياً ، فاشتراه منه ، والظاهر أن اليبوسيين كانوا قد تعودوا من رذالات النهب والاعتصاب الاسرائيلي ما جعل « أرونا » يندهش عندما وجد داود يدفع له ثمن

الجرن ، وكان قد عرض عليه - اتقاء لشره - أن يأخذه بلا مقابل ،
« فقال الملك لارونا : لا ، بل اشترى منك بثمن ، فلا أحرق القرايين
للرب إلهي مجاناً » . (صمويل الثاني ٢٤) .

أما عدد الصناع الذين اجتمعوا في أورشلم لينفذوا لسليمان المشروع
الذي أوصى به أبوه داود فضخم جداً يزيد على مائة وخمسين ألف
عامل ، والهيكل بناءً صغير حسب أوصافه التي وردت إلينا (طوله
٣٢ متراً ، وعرضه ١١ متراً وارتفاعه ١٦٧ متراً بالتقريب) مما يدعوننا
إلى التساؤل : هل كانت كل مواد البناء التي أعدها داود ، وهذا العدد
الضخم من العمال والفنيين مخصصة للهيكل وحده ، أم أن الأمر على
ما يذكر « لويس براون » من أن الهيكل لم يظفر من ذلك إلا بالقدر
الأقل بينما الجانب الأكبر قد خصص لمبان أخرى أقل اتصالاً بتمجيد
« الرب » ، منها القصر الملكي لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون ،
والصروح البديعة ، والفيلات الأنيقة ، التي أعدها لنسائه الكثيرات
جداً ، والأبنية الحكومية المختلفة ، وحتى المعابد الوثنية التي أقيمت
خصيصاً لمن رفضن اليهود من النساء الأجنبية اللاتي أحبهن سليمان
(الملوك الأول ١١) .

مهما يكن من شيء فإن العمال الذين جاءوا لتنفيذ المشروع كان
معظمهم من الأجانب كما قلنا ، وينقسمون حسب ما جاء في الإصحاح
الخامس من سفر الملوك الأول إلى الفئات الآتية :

١- ٣٠٠٠٠٠ عامل لقطع الأخشاب يكونون ثلاث ترحيلات كل
منها عشرة آلاف عامل ، تذهب إلى لبنان فتعمل شهراً ثم تعود إلى

فلسطين فتمكث شهرين هما مدة الترحيلتين الأخيرين ، بحيث تعمل كل واحدة من التراهيل الثلاث أربعة أشهر على أربع فترات في السنة . وكان الخشب المقطوع يأتى من لبنان بحرأ إلى يافا ، والمذكور منه نوعان هما الأرز والسرو ، وورد فى سفر أخبار الأيام الثانى ٨/٢ اسم غامض لنوع ثالث ، ترجمه المترجمون بالصنديل ، ومعروف أن الصنديل لا ينبت فى لبنان ، ولعل المقصود بالكلمة العبرية وهى من غريب اللغة - خشب الساج ، وهو خشب شجر يميل إلى الحمرة ويستعمل فى النجارة ، (وقد اعتمدنا فى هذا التصحيح على المعجم العبرى العربى « جامع الألفاظ » تأليف أبى سلمان داود بن إبراهيم الفاسى الذى يرجع إلى حوالى سنة ٩٥٠ م) .

٢- ٧٠٠٠٠ حمال

٣- ٨٠٠٠٠ حجار ، يهيئون حجارة البناء فى « محاجر سليمان » فى الطرف الشمالى من جبل الزيتون ، إلى أقصى الشرق من مدينة القدس .

٤- ٣٣٠٠ رؤساء تشغيل (عمال فنيون ، « أسطوات » ، ملاحظون) وعددهم فى سفر أخبار الأيام الثانى الاصحاح الثانى - مختلف إذ هو ٣٦٠٠

٥- ٥٥٠ بنائون من صور وجبيل ، وهما المدينتان الفينيقيتان المشهورتان فى العصور القديمة باتقان بناء الحصون والقلاع .

وفى ربيع السنة الرابعة من جلوس سليمان على العرش وضع الحجر الأساسى للمشروع بعد خمسمائة سنة من خروج بنى إسرائيل من مصر مع موسى ، وتم البناء بعد سبع سنين ، فى خريف السنة الحادية عشرة من ملك سليمان أيضاً .

يقول المؤرخ اليهودي اليوناني يوسفوس (تاريخ اليهود ، الجزء الثامن ، الفصل الثالث) : إن سليمان قد وصل بأساس الهيكل إلى عمق سحيق ، وكان هذا الأساس يتكون من مكعبات من حجر شديد الصلابة ، يمكن أن يتحمل بعد إرسائه في أعماق الأرض كل ثقل المبنى القائم عليه ، والذي يزيد من ثقاه كل التصميم الزخرفي الذي أعده له سليمان ، وهو تصميم يزن مثل وزن الهيكل نفسه وكانت الأحجار الأساس هذه بيضاء ، وكان طول الأساس ستين ذراعاً (٣١٥ متر) وعرضه عشرين ذراعاً (١٠٥) ، وهذه هي أبعاد الهيكل الظاهر فوق سطح الأرض حسب رواية الكتاب المقدس ، أما عمق الأساس فكان ستين ذراعاً أيضاً (٣١٥ متر) ومفهوم كلام يوسفوس أن الكتلة المحددة بهذه الأبعاد كانت كلها مصمته ، مملوءة بالمكعبات الحجرية الضخمة ، ولم تكن مجرد « سياج » يحيط بالأرض

ويرجح كثير من الأثريين وفي مقدمتهم الأثري الفرنسي « دي سولسى » في كتابه « تاريخ الفن اليهودي » أن الهيكل الذي بناه سليمان كان في داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل ، بدليل أن الهيكل الذي بناه اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي في نفس المكان ، وبعد سليمان بنحو خمسمائة سنة أخرى ، كان يحيط به سور أيضاً ، وكذلك الهيكل الذي عمره هيرودس بعد ذلك بخمسمائة سنة أخرى ، ثم الحرم الإسلامي الشريف الذي قام أخيراً ، في نفس المنطقة التي كان « ملكيصدق » يدعو فيها باسم الله العلي ، في زمن إبراهيم ويبدو أن السور الذي كان يحيط بمنطقة الهيكل على أيام سليمان ، كان مربعاً طوله ضلعه مائة وثلاثون متراً (فتكون مساحة ما يحيط به السور نحو

ثمانية أفدنة (إلا ربعاً) . وهذه المناسبة يذكر الأثرى الفرنسى « دى سولسى » مقاييس الحرم الإسلامى الشريف فى نفس المنطقة وفى العصر الحديث كما قاسها هو بنفسه ، وهى : الضلع الشرقى لسور الحرم وطوله ٣٨٤ متراً ، والضلع الجنوبى طوله ٢٢٥ متراً ، ثم يمتد الضلع الغربى بزواوية منفرجة وفى خط غير مستقيم ، بحيث يكون الضلع الشمالى من السور أطول بكثير من مقابله الجنوبى . وينبنى على ما ذكره « دى سولسى » أن تكون مساحة الحرم الشريف أكثر بكثير من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان ، أو نحيميا ، أو هيرودس . هناك أيضاً أمر يستحق الانتباه ، وهو أن الحرم الإسلامى الشريف مستطيل ، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب (فى اتجاه القبلة بمكة المكرمة) ، أما معبد سليمان فهو مستطيل لكن اتجاهه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس) وهو الاتجاه العام فى المعابد القديمة فى بابل أو مصر أو غيرها من أقطار الشرق الأدنى والأوسط . وإذن فلا يمكن التسليم بسداجة برأى من يدعون أن الحرم يقوم تماماً على ما كان سابقاً يسمى هيكل سليمان ، حتى لو سلمنا أن الهيكل كان فى هذا الركن بالذات من الجبل ، وهذا لا دليل عليه إلا العنعنات التى اتخذت فى نفوس البعض منزلة مقدسة لتكرارها عبر الأجيال . والذى يستفاد من أوثق النصوص - هو أن الهيكل كان يتضمن التفاصيل الآتية :

١- قدس الأقداس :

غرفة مكنية أبعادها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ١٠ مترات . وفيها ستار يقسمها قسمين ، ففي القسم الداخلى منها تابوت العهد ، وهو صندوق

تحفظ فيه نسخة من توراة موسى مخطوطة على جلد أورك ، عن يمينها
وشمالها تمثالان للكروبيين يملآن بقية الفراغ . وأصل الكروبيين في عقيدة
اليهود أنهما من الملائكة ، وكان اثنان منهما يحرسان أبواب الجنة
بعد أن طرد منها آدم وحواء ، ثم انتقلت القصة في الفولكلور الشرقى
القديم ، في بابل وأشور وبلاد الحيشيين وإيران وفينيقيها وغيرها
فأصبح « الكروب » نوعاً من أبى الهول المجنح يحرس البناء الذى
يوضع فيه ، وكان شكل التمثالين الحارسين يتخذ أسلوب الطراز الفنى
للأمة والعصر ، وأغلب الظن أنه كان فى هيكل سليمان أشبه بأمثاله
فى المعابد الفينيقية ، أى بأسلوب وسط بين الفن البابلى الأشورى
فى العراق والفن الفرعوى فى مصر ، وربما كان فى هيكل هيرودس قد
نفذ بشكل أقرب إلى الفن النجرىدى ، دون تفاصيل واقعية احتراماً
لنهى التوراة عن اتخاذ التماثيل المنحوتة ، فكان « الكروب » أو الملك
الحارس يظهر بشكل كتلة وسطى يحف بها جناحان كبيران مدببان ،
ولعله من هنا جاء الاعتقاد الشعبى عند الرومان فى أن اليهود يعبدون
فى قدس الأقداس صنما على شكل رأس حمار ، إذ بدا لهم جسم
« الكروب » بين الجناحين كرأس حمار بين الأذنين الطويلتين ،
إذا وضعنا فى الحسبان الفرق الشاسع بين ثقلى الفن اليهودى وتخلفه ،
وفخامة الفن الرومانى ودقته وتفوقه .

وأما النصف المنتوح من قدس الأقداس فيحتوى فى الوسط على
المذبح الذهبى للقرايين ، وإلى يساره منضدة تحمل الشمعدان السباعى
الذى يضاء فى أضاء إقامة الطموس - ويقال : إنه كان فى هيكل سليمان

يضاءً باستمرار لا ينطقُ أبداً ، وإلى يمين المذبح الذهبي منصدة لخبز
التقدمة الذى يدخل فى الطقوس اليهودية أيضاً .

٢- البهو المقدس :

وهو المكان الخاص باجتماع الناس للعبادة وإقامة الشعائر ، ويفصله
عن قدس الأقداس باب ، وعلى جانبيه صفت مناخيد لوضع المسارج
والشموع .

٣- قاعة المدخل :

وهى أول مكان يلي الباب ، وليس بها أثاث دينى معين ، وهى التى
يليهما من الخارج باب الهيكل ، وكان عليه عمودان أحدهما عن اليمين
باسم « ياكين » أحد أخفاد يعقوب من سبط شمعون ، والثانى عن
اليسار باسم « بوئز » ، أحد أبطال سبط بهودا القدماء . وعلى جانبي
هذا الصحن الخارجى المكشوف الذى يقوم فيه العمودان أحواض لغسل
الذبائح ، ومذبح فى الهواء الطلق لتصعيد القرابين التى تحرق بالنار
من هذه الذبائح ، يصعد إليه بسلم من عدة درجات وفى زاويتي المبنى
سلمان يوصلان إلى الطوابق العليا التى بها غرف الكهنة ومرافق الهيكل .
وعن يسار المذبح الخارجى « بحر النحاس » وهو حوض نحاسى كبير
يحملة اثنا عشر ثوراً من البرنز .

وهكذا يكون طول المبنى كله ٣١ر٥ متراً وعرضه ١٠ر٥ متراً ،
وارتفاعه فيما عدا قدس الأقداس ١٥ر٧٥ متراً ، بينما قدس الأقداس
سقفه منخفض نسبياً ، فارتفاعه كما قلنا ١٠ر٥ متراً .

وكان من الداخل مغطى بالتمشوش المنحوتة في الحجر والخشب من أزهار ونباتات وكرويين وكما يقول لويس براون ، لم يكن المعبد لا فخماً ولا ضخماً إلا في أعين اليهود البسطاء الذين لم يكونوا قد وصلوا من الحضارة إلى درجة يطمحون معها في إنجازات معمارية كالتى كانت سائدة في نغس العصر في مصر الفرعونية أو بابل وأشور أو إيران أو الهند .

وقد بقى هذا الهيكل حتى خربه بختنصر فسحا أثره محوياً تماماً في القرن السادس قبل الميلاد . وربما دخلت حجارة من أنقاضه في أبنية متأخرة ، ظن بعض الباحثين . بحسن نية أو للمغالطة وتشويه التاريخ ، أنها بقايا من إنجازات سليمان .

الهيكل الثانى

كان هم العائدين من السبي البابلى الذى دام سبعين سنة أن يبسطوا سلطانهم مرة أخرى على فلسطين ، وأن تقوم لهم دولة ، تحت وصاية « قورش » امبراطور إيران فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن تكون هذه الدولة قنطرة للتوسع العسكرى الفارسى فى الشرق الأوسط ، الذى انتهى باستيلاء قمبيز على مصر نفسها . وإذا كان السادة الفرس لم يعطوا اليهود « وطناً قومياً » إلا بشروط معينة خلاصتها الولاء التام والتبعية المطلقة لسياستهم بخيرها وشرها فإن اليهود أرادوا أن يعيدوا بناء أورشليم ، وتشيد هيكل سليمان ، حتى تكون هذه الواجهة أمام

الناس تعمية على التبعية التي رضخوا لها صاغرين . ولقد حاولوا جاهدين أن يبنيوا الهيكل الثاني على نفس المخطط الذي بنى عليه الهيكل الأول ، هيكل سليمان ، وانتهى البناء في عهد دارا الأول الفارسي .

كان الذين عادوا من السبي نحو أربعين ألف يهودي أو يزيدون قليلا ، وكان على رأسهم « يوشع بن يوصدق » و « زروبابل بن شلتشيل » ، فبدأ ببناء مذبح للمحروقات في الهواء الطلق على جبل الهيكل الذي كان وقتها خراباً ، وفي اليوم الأول من الشهر السابع من عودة اليهود من بابل إلى فلسطين كانت الطقوس تقام أمام هذا المذبح ، ثم لما لحق « عزرا » و « نحميا » بالعائدين إلى فلسطين من اليهود بدأت أعمال البناء والتحصين وإقامة أسوار أورشلیم تتخذ شكل الإنجاز النشيط ، ورغم بعض العقبات التي كانت تقيمها الحكومة الفارسية من حين لآخر ، ورغم مقاومة غير منظمة قام بها أمراء حوران وعمان والجزيرة العربية ، والفلسطينيين المتمركزين في أشدود (سفر نحميا ، الإصحاح الرابع وما بعده) .

وهذا الهيكل الثاني أيضاً انتهى أمره بالدمار التام بعد إقامته بخمسة قرون على يد تيتوس الروماني . يقول يوسفوس في كتابه « حرب اليهود » (الجزء الخامس ، الفصل الرابع ، الفقرة الثالثة) : « وكان تيتوس كلما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس في المنطقة التي يسيطرون عليها ، أمرهم أن يخبروا أورشلیم ومعبدها وأن يقلبوها ظهراً على عقب ، فيما عدا الأبراج العالية التي كان يحرص على بقائها كشواهد على ما قام به من تدمير » . وهكذا

انمحت معالم هذا الهيكل أيضاً إلا بقايا نادرة ، مع ملاحظة أنه عند وصول تيتوس كان هيرودس ، قبله بنحو قرن من الزمان ، قد أدخل تعديلات وتغييرات على الهيكل الثاني ، وعلى تخطيط المدينة نفسها ، كانت وحدها ، وبدون هدم أو تدمير ، كفيلة بجعل الوصول إلى التخطيط المعماري المبدئي الهيكل الثاني أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، بالرغم من كل المحاولات التي أراد الباحثون اليهود أن يخرجوا منها بمخطط معماري دقيق مستمد من عنعنات التلمود ومنهم الأثرى اليهودي « أيز نشتاين » مثلاً . وأما ما جاء من جعل الصخرة الشريفة هي نواة قدس الأقداس فقد بينا الشكوك القوية التي تحوم حول هذا ، وأولها ما ذكرناه من الاختلاف الشديد بين صخرة قدس الأقداس وصخرة المعراج النبوي المبارك من حيث الحجم والارتفاع عن الأرض . وانطلاقاً من هذا المخطط التلمودي ، ومع الوصف الذي أورده المؤرخ يوسفوس وغيره ، تجدنا مضطرين إلى أن نسجل مرحلة ثالثة متطورة جداً من الهندسة الدينية اليهودية في حالة معبد أورشليم إبان ظهور المسيح .

هيكل هيرودس

وقد استفاد بعمق من العمارة اليونانية الرومانية ، وكادت تخفى منه الملامح الدالة على أصله اليهودي تماماً ، وهذا الهيكل هو الذي دمره تيتوس ومحاه من الوجود سنة ٧٠ ميلادية ، وحائط المبكى كان على الأرجح جزءاً من جداره الغربي . واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن « الجدار الغربي » .

هيكل جوبيتر كبير آلهة الرومان

على أثر الثورة التي قام بها في أورشليم ضد الحكم الروماني الزعيم اليهودي « بركوكبا » جاء الامبراطور هدریان (في أوائل القرن الثاني الميلادي) وأزال كل شيء يهودي في أورشليم حتى اسم المدينة كما قلنا ، وعلى أنقاض الهيكل بنى معبداً رومانياً لكبير الآلهة « جوبيتر » وأقام تمثالا لهذا الإله وآخر للإله فينوس ، وجعل هذا انصرح على جبل أورشليم أشبه بمعبد الكابيتول الواقع على أحد جبال روما السبعة ، ولذا أعطاه اسمه شخصياً « اليوس » واسم « الكابيتول » ، وحرم استعمال اسم أورشليم وأحل محلها الاسم الروماني الذي صنعه هو « إيليا كابيتولينا » حتى أصبح اسم أورشليم لفظاً تاريخياً يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل وظلت المدينة تسمى « إيليا » ولا يسكنها اليهود حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي ، حيث كانت المنطقة الوثنية التي أنشأها هدریان قد خربت ، وجاء ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب فأنشأ مسجداً بسيطاً لجنده ، هو نواة الحرم الشريف والمسجد الأقصى ، بعد أن كان الاسلام قد كرس تلك البقعة المباركة ، بوحي قرآني ، ومعجزة الإسراء والمعراج المحيرة للأذهان .

فهرس الكاب

رقم الصفحة	
٢ - ١	تقديم امفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بىصار
٣٧ - ٣	إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين
٦٢ - ٣٨	نظرة على ما قبل الصهيونية
٦٦ - ٦٣	لحة سريعة إلى المستقبل
٦٧	القدس... مدينة الله... ؟ أم مدينة داود...
٧٥ - ٦٩	من الحاضر إلى الماضي
٨٧ - ٧٥	أورشليم (القدس) قبل العبريين
٩١ - ٨٧	داود... ومدينته
٩٦ - ٩٢	مدينة داود... بعد داود
٩٨ - ٩٦	الخراب الأول، والهيكل الثانى
١٠٠ - ٩٨	أورشليم وروما
١٠١	الخراب الثانى - والأخير - لأورشليم
١٠٢ - ١٠١	إيليا كابيتولينا... لا أورشليم
١٠٤ - ١٠٢	دموع التماسيح على حائط المبكى
١١١ - ١٠٤	القدس الشريف
١٢٠ - ١١١	هيكل سليمان... وهياكل أخرى
١٢٢ - ١٢٠	الهيكل الثانى
١٢٢	هيكل هيرودس
١٢٣	هيكل جويتر كبير آلهة الرومان

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

رئيس مجلس الإدارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/٥١٤٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٣٢٢٩١-١٩٧٣-٠٠٠٢

